

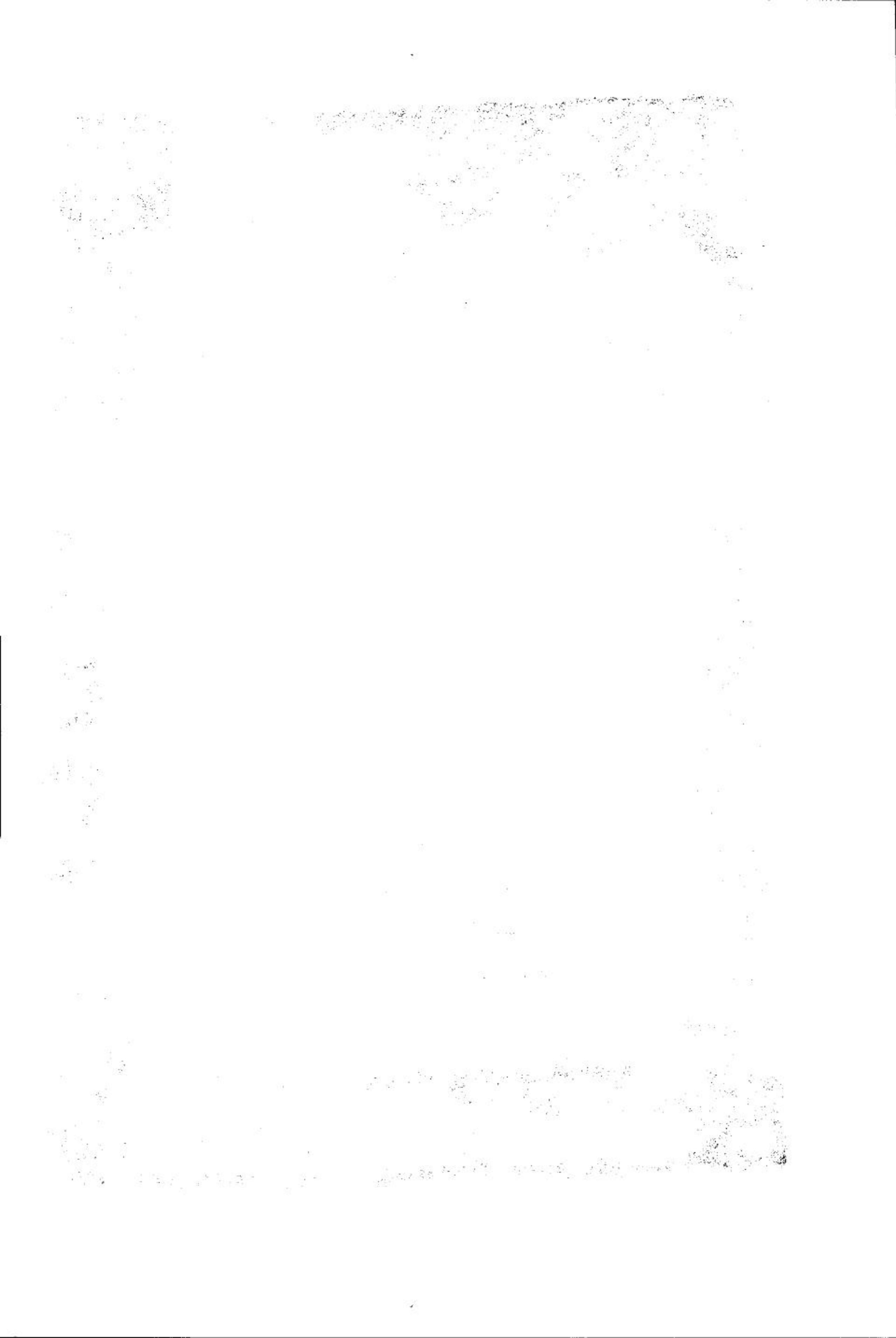
البحث

٢

رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين
عام (١٨٦٧ - ١٨٨٧م) / (٢٠٤ - ٢٣٧هـ)
(دراسة تاريخية نقدية)

المقدمة

د/ علي أحمد محمد السيد
مدرس تاريخ العصور الوسطى
 بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية
(فرع دمنهور)



رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين

عام (٨٦٢ - ٨٧٠ م) / (١٥٧٤ - ١٥٩٣ هـ)

(دراسة تاريخية نقدية)

شهد القرن الماضي نشاطاً واسعاً في مجال نشر نصوص الرحلات الأوروبيّة خلال فترة العصور الوسطى إلى الشرق العربي ، فمنها ما نشر باللغات الحديثة كالإنجليزية والفرنسية تيسيراً للإطلاع أو بلغتها الأصلية اللاتينية أو غيرها حرصاً على الأصالة ، وكانت رحلة برنارد قد لقيت اهتماماً واضحاً بتقديمها غفلاً للقراء ، فقد قام الباحث الألماني ريجنالد رورخت بحصر أربعة مخطوطات تضمنت نص الرحلة وكذلك خمس إصدارات لها باللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن المذكور ، وخلاله تم نشر النص عدة مرات ، لعل أهمها إصدار عام ١٨٤٨ م . إذ قام « رايت . ت » بنشرها باللغة الإنجليزية بلا تحقيق^(١) ، ثم نُشر النص باللغة اللاتينية في عام ١٨٧٤ م . متضمناً بعض المحواشي التي لم تشف من غليل^(٢) ، كذلك حرص سير أوبرى ستيبورات في عام ١٨٨٩ م. على تضمين نص الرحلة في الموسوعة الضخمة « مجموعة نصوص رحلات حجاج فلسطين » وذلك باللغة الإنجليزية ، ويلاحظ أنه حرص على عدم التدخل بإاجراه أي تعديل في النص مكتفياً بترجمته حرفيًّا^(٣) . وفي القرن الحالي صدر آخر نشر لنص الرحلة على يد « جون ولكتسون » في عام ١٩٧٧ م . وذلك في أولى مجموعاته عن الحجاج الأوروبيّين إلى فلسطين التي تحمل مسمى « حجاج القدس قبل الحروب الصليبية^(٤) » ، وفيه قدم الناشر قليلاً من الإضافات المقتبسة من مخطوط رئيس RHEIMS وبعض الإيضاحات التي أدخلها من تلقاه نفسه وكذلك بعض التفسيرات في شكل هوا من اكتفت بتسليط أضواء على جزئيات محدودة، إلا أن الباحث خلال دراسته فضل الارتكان إلى النص الذي نشره سير أوبرى ستيبورات بصفته نصاً أساسياً لم يسيء إضافة أو تحريف مع الوضع في الاعتبار الإضافات اللاحقة .

Wright , T. Early Travels in Palestine , London 1848 , pp . 23 - 41 , (١)

والمعرفة المزيد عن مواضع حفظ المخطوطات الخاصة بالرحلة ، والإصدارات المبكرة لها ، وكذلك التعرف على جهود تأهيل الرحلة في القرن الماضي بلغتها الأصلية واللغات الحديثة . راجع :

Ruhricht.,R. Chronologisches Verzeichniss der Auf die geographic des Heiligen Landes , Bezuglichen Literature Von 333 Bis 1878 , Berlin 1890, 2.17

Tobler, T. , Molinier, A., (ed s.)

Itinera Hierosolymitana , 2 vols. , Publications de la Société de L' Orient Latin , Série Géographique 1,2, Geneva 1874. p.p. 307 - 20

Bernard The Wise , A. Pilgrimage to the Holy Places , 870 . AD., In Palestine Pilgrims texts Society , Vol. III , London 1989 , pp . 3 - 11

Bernard The Monk , A Journey to the Holy Places and Babylon, ed. John Wilkinson, Jerusalem Pilgrims Before The Crusades , England 1977 , p.p. 141 - 145.

ونظراً لأهمية الرحلة التي سوف يبررها الباحث في موضعها وكونها تعكس رؤية أوروبية لكثير من الجوانب في المجتمعات التي مرت بها غرباً وشرقاً حيث الغرب الأوروبي ومصر وفلسطين آثر الباحث أن يتناول المادة الواردة بها التحليل والنقد في دراسة تاريخية صنفها إلى جوانب سياسية وعمرانية واقتصادية واجتماعية وختمنها بلاحظاته وأهم النتائج التي خلص إليها مدعماً بحثه ببعض الخرائط التوضيحية، ثم أعقب ذلك بعرض الترجمة العربية لنص الرحلة كي يضع حقائقها مجردة بين يدي القارئ العربي إذا ما أراد التحقق بنفسه من جزئياتها أو تتبع البلاد والمدن التي مرت بها الرحلة متضمنة ما أدخل عليها من إضافات وتفسيرات حرص الباحث على وضع علامات مميزة لها.

وفي بدء هذه الدراسة ينبغي التعرف على مدون الرحلة وتاريخها ، فحقيقة لم نعثر في المصادر المتاحة على ما يمكننا من التعرف على شخصية برنارد الحكم BERNARD THE WISE أو برنارد الراهب BERNARD THE MONK صاحب هذه الرحلة ومدونها وكل ما عرفناه عن هذه الشخصية كان من خلال ما كتبه هو في رحلته فهو راهب من جبل سانت ميشيل في برترانى BERTANY (مقاطعة في شمال غرب فرنسا) دفعته الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين إلى الخروج لزياراتها وهو بذلك يمثل النمط المألوف للمثقفين من أهل أوروبا في عصورها المظلمة الذين أفرزتهم الحركة الرهبانية البندكتية الواسعة التي شملت معظم أرجاء الغرب الأوروبي . ويدرك برنارد أنه اصطحب معه في رحلته راهبين أحدهما راهب إيطالي يدعى ثيودوروس من ذكر برنارد أنه اصطحب معه في رحلته راهبين أحدهما راهب إيطالي يدعى ستيفن STEPHEN من دير القديس فيينسنت THEUDEMUN DUS ينفينتو - بنفينتيو - BENEVENTO - BENEVENTUM ^(٥) أما الثاني فهو إسباني يدعى ستيفن STEPHEN.

كان الهدف من الرحلة وفقاً لما أورد صاحبها هو زيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس . أما ماجا ، من وصف للأماكن الأخرى في الأرض المقدسة في فلسطين وكذلك بعض البقاع في شمال مصر فضلاً عن البلاد التي وقعت على خط سير الرحلة في أوروبا لم تكن هي المقصودة من قيام الرهبان الثلاثة برحلتهم وإن كانت قد دخلت في دائرة اهتمامهم بحكم وقوعها على الطريق ولشقاوتها الدينية ولعل حرص إبطال الرحلة الثلاثة على التوجه إلى البابوية في روما للحصول على المباركة والمساعدة لهم في مشروعهم يقدم الدليل على أن الهدف منها هو الحج ، ثم تقديم وصف يكون بمثابة الدليل كى يستفيد منه الزوار المسيحيون حينما يقصدون بيت المقدس ، ولذا

(٥) أسس اللومبارديون دوقية بنفينتو التي يقع مركزها على بعد حوالي ١٤٢ ميل جنوب شرق روما إلى جانب دوقية سبوليتو SPOLETO كما أسسوا دوقية تارنتوم TARENTUM وفرويلى FRIULI في الشمال منها وهكذا أصبحت البابوية في روما محاصرة بدوقيات لومباردية غير أن بنفينتو وسبوليتو خضعا للسلطة البابوية بمساعدة من император شارلمان Charlemagne ٧٦٨ - ٨١٤ ، ولمعرفة المزيد عن علاقة المقاطعة بالبابوية راجع :

Walter Villmann , A Short History of the Papacy in the middle Ages, 2 nd, ed., London 1974 , pp 48 , 79, 118, 132 , 174.

فمن الجائز إطلاق لفظة الحجاج على الرهبان الثلاثة إذ أنها اللفظة الواردة بالمصادر حين الإشارة لكل من يتوجه إلى الأراضي المقدسة في الشرق بفرض الزيارة

أما عن تاريخ الرحلة فبداية : حدد برنارد الحكيم تاريخ رحلته بأنها وقعت في عام تسعمائة وسبعين للميلاد ، بعد الحصول على مباركة البابا نيكولاوس NICHOLAS للقيام بالرحلة ^(٦) ولم يحدد أى نيكولاوس هذا ، وبالبحث تبين أن أول من تولى منصب البابوية ويحمل هذا الاسم «نيكولاوس» وذلك في الفترة من ٢٤ أبريل ٨٥٨ إلى ١٣ نوفمبر ٨٦٧ محرم ٢٤٤ إلى ٢٢ ذى القعدة ٢٥٣ هـ ، أما أقرب الباباوات تاريخياً الذي حمل بعده ذات الاسم فهو نيكولاوس والذي عرف باسم نيكولاوس الثاني الذي تولى البابوية في الفترة من ١٨ ديسمبر ٩٥٨ إلى ٢٧ يوليو ١٠٦١ ^(٧) م. ٢٨ / ٤٥ شوال ٤٥٣ هـ ، وببداية فإن برنارد قد سجل خطأ تاريخياً واضحًا تمثل في عدم اتفاق التاريخ الذي حدد له رحلته مع تاريخ تنصيب الرجلين الذين حملوا اسم نيكولاوس.

على أن هناك من الباحثين من يشير إلى أن الرحلة تمت حوالي عام ٨٧٠ أو في الفترة ما بين عامي ٨٦٧ ، ٨٧٠ ^(٨) ولم تجد لدى هؤلاً ما يبرهنون عليه بوضوح في تحديد هذا التاريخ ، إلا أن برنارد أورد أحداً تارياً تساعد الباحث على إيجاد الأسانيد التي يمكن التحقق منها عن تاريخ قيام الرحلة وعودتها ، ومن ذلك أنها مرت بميناء باري BARI ^(٩) الإيطالي في أثناء السيطرة الإسلامية عليه ، وفي هذا

HANS Kühner Encyclopedia of the Papacy , trans From German by Kenneth J. (٦) Northcatt , London 1959, pp. 49 - 50

انتخب نيكولاوس الأول ليعتلي كرسى البابوية ، وهو يعتبر من أعظم شخصياتها شأنًا ، وكان قد تلقى تعليمًا في قانون الكنيسة وتقاليدها ، عمل في مساعدة عدد من الباباوات فتتربى على منصبه وتلقي فيما طبع إليه بفضل ما يشهده من أفكار ، وما كان عليه من فصاحة إذ كان يكتب للملوك ولرجال الدين بأنه صاحب السلطان الأعلى ، فكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفًا بها في أقاليم أوسع مما قبل اعتلاء المنصب . راجع : Walter VII: manna , Op. Cit. pp. 102 - 104 .

(٧) الاسم الحقيقي لهذا البابا هو جيرهارد البرجندى Gerhard of Bergandia وفي عهده انعقد مجمع اللاتيران الكنسى ١٠٥٩ م واتخذ قراراً بان انتخاب البابا هو من حق الكرادلة فقط لمعرفة المزيد عن تلك الشخصية ، راجع :

Hans Kühner ,Op. Cit, p. 72

(٨) عزيز سوريان عطية : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٠ م ، ص ٣٠ ، راجع أيضًا :

Bernard the Monk , ed., Op. Cit, p. 141, n. 2

(٩) باري : مدينة ساحلية تقع عند مدخل البحر الإدريسي من الجهة الغربية والمتناهية بعد العاصمة العسكرية لإقليم لمبارديا ، انظر :

Bury, J. B, History of the Eastern Roman Empire , London 1912

الصدد تشير المصادر إلى أن مسلمي شمال أفريقيا هاجموا إقليم دالماسيا DALMATIA وحاصروا مدينة راجوزة RAGUSA الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي مدة خمسة عشر شهراً فاستنجد الأهالي بالإمبراطور البيزنطي باسيل الأول BASSELI والذى ما لبث أن تولى العرش فى عام ٨٦٧ . حتى ٨٨٦ / ٢٥٣ - ٢٧٣ دفارسل أسطولاً لنجذتهم فحول المسلمين هجومهم تجاه بارى واستولوا عليها ^(١٠) . وهكذا نجد أن بدء الرحلة ارتبط باستقبال البابا نيكولاوس الأول لأفراد الرحلة الذى انتهت فترة بابويته فى نوفمبر من عام ٨٦٧ ، وليس نيكولاوس الثانى الذى خلفه بما يقارب القرنين ، كما ارتبط بدورها باستيلاء المسلمين على بارى ربما فى نفس العام حينما تولى باسيل العرش البيزنطى . وتحتوى الرحلة فى أحداثها التالية على ما يؤكد وقوعها فى فترة الأعوام الثلاثة المذكورة .

وفيما يختص بأهمية الرحلة فقد اجتمعت عدة أسباب كى تعطى لرحلة برنارد أهميتها التاريخية ، فصاحبها كان شاهد عيان للأحداث بل هو بطلها ، وهو الأوروبي ورجل الدين المسيحي المحمل بشقاقيات أوروبا فى العصور الوسطى بكل ما عرف عنها من اضطهاد . وهو الحاج الذى دفعه شغفه إلى زيارة الأرض المقدسة بعد ترحاله بين عديد من البلاد المصرية . وكانت زيارته فى وقت اضطررت فيه الأحوال السياسية داخل الدولة العباسية ، إضافة إلى بروز دولة الأغالبة فى شمال أفريقيا ، فكان المجال مفتوحاً أمام هذا الحاج المسيحي كى يرصد جانباً مما تمعج به الساحة من أحداث وحركة ، وهذا ساعد فى إلقاء بعض الضوء على جوانب من الصراعات بين القرى السياسية فى حوض البحر المتوسط . كما تأتى أهمية الرحلة من أنها قدمت بشكل واضح مشاهدات شكلت مادة خصبة للتعرف على بعض النواحي الحضارية فى مجال العمارة والعملة والزراعة والتجارة والطرق والنظم ، فضلاً عن إلقاءها بعض الضوء على الأوضاع الاجتماعية القائمة ، وعلى الرغم من أن بعض المعلومات التى قدمها برنارد كانت مألوقة فإنها تعد تأكيداً لما أورده مصادر هذه الخقبة وتوضيحاً لها .

وبعد التعرف على صاحب الرحلة ورفيقيه وبعد إبراز هدفها وتاريخ وقائعها وأهميتها .

(١٠) قسطنطين السابع (بورفير وجنيتوس) : إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عيمران ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ١٠٨ - ١١٠ . يوجد بعض اللبس حول تاريخ سيطرة المسلمين على بارى ، إذ يذكر هذا المصدر أن المسلمين سيطروا عليه فى عام ٨٧١ م ، ثم نجد المصدر نفسه يشير إلى أن المسلمين أتوا ذلك بعد تولى باسيل الأول العرش ورفع الحصار عن راجوزة ، بينما يذكر بيروى أن المسلمين سيطروا على بارى عام ٨٦١ م . ففي حين يشير باحثون آخرون إلى سقوط المينا ، فى أيدي المسلمين عام ٨٤٦ م . وعودته إلى البيزنطيين عام ٨٧١ م . انظر :

Bury , J. B. , Op. cit , p. 313 , Cambridge Medieval History , vol IV , The Byzantine Empire , Part I , Cambridge 1960 , p.p. 728 - 729 ,

أرشيبالد (الرس) : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، ومراجعة محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١٨ .

يتعرض البحث لأبعادها خلال الصفحات التالية في دراسة تاريخية نقدية مع الالتزام بتصنيف مادتها إلى أربعة محاور أساسية وبداية فقد ورد في رحلة برنارد الحكم بعض الأحداث والماضي الشخصية وجدها جديرة بأن يذكرها في إطار حديثه العام عن تفاصيل الرحلة ومنها ما ارتبط بالجوانب السياسية تخص المجتمعين الأوروبي والإسلامي حيث جنوب إيطاليا ، وكل من مصر وفلسطين ، وذلك خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي أواسط الثالث الهجري . وقبل التعرف على الرؤية السياسية لهذا الزائر الأوروبي داخل المجتمعات التي مررت بها رحلته ، فيبدو لزاماً التعرض بإيجاز إلى أحوالها السياسية المعاصرة للرحلة .

ففيما يتعلق بالبلاد الإيطالية التي انطلقت منها الرحلة فكانت تعيش نفس الظروف التي شملت باقي أرجاء الإمبراطورية الكارولنجية من اضطراب في أخريات عهدها ، ووفقاً لتقسيم معاهدة فيردان FERDEN ٨٤٣م. وقعت إيطاليا التي اختلطت بها الأجناس واللغة والتقاليد وفقاً لظروف سياسية ضمن القسم الأوسط المحصور بين القسم германى شرق نهر الراين والقسم الغربى الذى يضم المقاطعات الفالية الرومانية ^(١١) ، كما أحاطتها عدة ظروف ساعدت في تغيرها سياسياً بين عدة قوى تطرقـتـ الرحلةـ إلىـ جانبـ منهاـ وهـىـ : الإـمبرـاطـورـيةـ البيـزنـطـيـةـ التـىـ ماـ لـبـثـتـ أـنـ حـاـوـلـتـ اـسـتـعـادـةـ هـبـيـتـهاـ ، وـأـرـاضـيـهاـ مـنـ الـبـاـبـوـيـةـ فـىـ ظـلـ السـيـاسـةـ القـوـيـةـ لـلـإـمبـراـطـورـ باـسـيـلـ الـأـوـلـ ، وـالـأـمـرـاءـ الـلـمـبـارـدـيـنـ ، وـالـبـاـبـرـيـةـ ، وـكـذـلـكـ الـمـسـلـمـيـنـ فـىـ الـجـنـوبـ الـذـيـ تـدـخـلـواـ بـدـعـوـةـ مـنـ الـمـدـنـ السـاحـلـيـةـ فـىـ الـمـنـازـعـاتـ التـىـ نـشـبـتـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ الـنـمـبـارـدـيـنـ فـىـ الدـاخـلـ ^(١٢) .

أما عن مصر والشام اللتين هما هدف الرحلة فقد كانتا تخضعان لسيطرة الخليفة العباسية في ذلك الوقت ، التي كانت تعانى من تزايد النفوذ التركى فى البلاط والجيش ، على حين انفصلت أجزاء منها فى الغرب . وبعد عدة حروب أهلية استقل بنو الأغلب عملياً عنها ^(١٣) . فى حين واجه الأمويون فى الأندلس كثيراً من الصعب . وكانت أهم الأحداث التى شهدتها مصر والشام وقت الرحلة أن وصل أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها باكباك التركى (منتصف سبتمبر ٨٦٨م. / ٢٣ رمضان ٢٥٤هـ) متقدماً القصبة (أى العاصمة وتضم الفسطاط

(١١) ديفز (هـ. و) : أوريا في العصور الوسطى . ترجمة د. عبد الحميد حمدى محمود ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٥٨م. ، ص ٦٤ - ٦٦ : راجع أيضاً : محمد رفعت : الأطلس التاريخي (فى العصور القديمة والمتوسطة والحديثة) ، لندن (بـ ت) ، المطبعة ١٨.

(١٢) ابراهيم طرخان: المسلمين فى أوريا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢١١ - ٢١٢ : راجع أيضاً: وديع فتحى عبد الله : بيزنطة و المسلمين جنوب إيطاليا و صقلية فى عهد باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦م. / ٢٥٢ - ٢٧٣هـ) ، الاسكندرية ١٩٩٢ ، ص ١٢.

(١٣) أسرة الأغالبة تنسب إلى جدهم الأغلب بن سالم التميمي ، تمكناً من تأسيس دولة قوية لهم فى شمال إفريقيا فى آخريات القرن الثامن الميلادي . امتد نفوذه ليشمل تونس وطرابلس وصقلية لكنها ظلت موالية للخليفة العباسية . وكانت ذات حضارة إذ اهتم حكامها بالأدب والعلوم والفنون ، وظلت دولتهم درعاً وافياً ضد توسيع الشبيعة حتى سقطت على أيدهم فى سنة ٩٠٨م. / ٢٩٦هـ : راجع : السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسى الأول ، الاسكندرية ١٩٧٧م. ، ص ١٩٣ - ١٩٥ .

والعسكر) دون الأعمال الخارجية عنها ، ومالبثت أن استقرت له ب مصر الأحوال بعد الانفراد بشئونها السياسية والمالية ، وذلك بالتخليص من عامل الخراج أحمد بن المدبر وعامل البريد شقير الخادم ، كما تهيات الظروف أمامه بأن فرض ولايته على مجمل البلاد حتى برقة ، ثم توجه إلى الإسكندرية في الحادى عشر من يوليو ٨٧٠ م. / ، الثامن من رمضان ٢٥٧ هـ . بعد لقاء مع واليها إسحق بن دينار خارجها ، فسمح له ابن طولون بالبقاء على ولايته رعايا لخبرته بها . أما بلاد الشام حيث جندى فلسطين والأردن فكانا تحت ولاية أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى الذى لم تنته ولايته إلا فى عام ٨٧١ م / ٢٥٧ هـ . ثم استقر الأمر أخيراً لابن طولون عليهما فى عام ٨٧٨ م / ٢٦٤ هـ ^(١٤) . وهذه الأحداث تبين أن الأوضاع السياسية فى البلاد التى شهدت وقائع الرحلة لم تكن مستقرة . ففى الشرق ، كانت هناك ثلاثة كيانات لمجتمعات إسلامية مر بها الزوار وهى : - الإسكندرية تحت ولاية ابن دينار ، والفسطاط والعسكر مع بقية أقاليم مصر الشمالية فى ظل ولاية ابن طولون ، وكذلك جندى فلسطين والأردن تحت ولاية أحمد بن عيسى ، وذلك برغم تبعية تلك الولايات جميعاً لسيادة العباسيين فى بغداد .

وفي وسط تلك الظروف السياسية تبدأ أحداث الرحلة من روما بعد الحصول على مباركة من البابا وهذا فى حد ذاته يبرز مدى اهتمام البابوية بالحج إلى الأرض المقدسة فى فلسطين إلى الخد الذى معه كانت تقدم دعماً مالياً تشجيعاً لذلك الغرض ، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعكس تزايد نفوذها داخل المجتمع الأوروبي وقدرتها على الحركة فى كثير من الاتجاهات ، وبعد مغادرة الرهبان الثلاثة مدينة روما ، ذكر برنارد أنهم واصلوا طريقهم إلى مدينة بنفنتيو وفي مواضع متباينة نوه إلى بعض الواقع السياسية التى شهدتها المنطقة ، ومنها ما نشب من نزاعات بين النساء للمبرادر الذى انتهت باستدعاء الامبراطور الكارولنجي لويس الثانى LOUIS II ٨٤٣ - ٨٧١ م) ، وكذلك تناول برنارد شخصيات كارولنجية أخرى بالذكر مثل شارلز CHARLES ولوثر LOTHAIR ، أخوا لويس ، ذكر أن أهل المدينة من المسيحيين ، وربما لهذه الإشارة أهميتها ، إذ كانت المدينة قد سقطت فى يد لويس الثانى لفترة امتدت من عام ٨٦٦ حتى ٨٧١ م . وفي إبراز برنارد للمسيحيين كطرف مختلف فى الجانب الكارولنجي ما يشير إلى وجود طرف آخر ، وبالفعل فقد كان هو الطرف الإسلامي حيث كان المسلمين قد وصلوا بغاراتهم حتى مدينة روما ذاتها عام ٨٤٦ م . ، بل سيطروا على بنفنتيو فى أثناء غاراتهم المتقدمة وذلك فى عام ٨٦٣ م ^(١٥) أي قبيل إنطلاق الرحلة ببعض سنوات ، ثم خرج برنارد من بنفنتيو فى طريقه إلى

(١٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق : محمد كرد على ، دمشق (ب. ت) ، ص ٤٢ - ٥٠ ، وهو يحدد تاريخ تولى ابن دينار الإسكندرية باسم ابن طولون بعام ٢٥٦ هـ ، أما عن التاريخ المذكور فى المتن فانظر : الكندى : كتاب الولاية وكتاب القضاة . تصحیح رفن کست ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢١٦ : رأيضاً : ولاية مصر ، تحقيق : حسين نصار ، بيروت ١٩٥٩ م ، ص ٢٤٢ .

Christie Neil , The Lombards , The Ancient Longobard 3 , - 10 U.S.A. (١٥) 1995 , pp. 206 , 209 , 217

مينا ، بحرى ينطلق منه إلى هدف رحلته فى الشرق فوصل أولاً إلى مينا ، بارى الساحلى حيث عنى بالإشارة إلى تحصيناته الصناعية والطبيعية ، والجدير بالذكر أن المصادر أقرت الدور الذى لعبته هذه المدينة خلال حكم المسلمين لها فى مصر والمناطق المتاخمة فى وسط وجنوب إيطاليا وأنهم أقاموا بها مسجداً جامعاً بعد الفتح^(١٦) وسجل برنارد هذه الحقائق مؤكداً على وقوعها.

وبعد أن وصل الرفقاء إلى بارى ، توجهوا إلى حاكمها سلطان SULDANUS ، ووفقاً لما ذكره برنارد فذلك هو اسمه وليس لقبه مصححاً اعتقاد بعض الباحثين^(١٧) ، وهناك طلبوا التصریح لهم بالذهاب إلى الإسكندرية . وأكّد برنارد في هذا الموضع على أن حاكم الإسكندرية وبابلون (أي الفسطاط) كانوا يعملان تحت إمرة أمير المؤمنين خليفة بغداد وسامراً ، وهكذا قدم أكثر من معلومة لها طابعها السياسي ، تشير إلى أنه أقبل على اكتساب معلومات قبل رحيله إلى البلاد التي قصدها ، ليكون محبيطاً بأوضاعها المختلفة حتى أدرك حقائق مثل : جميع المسلمين عدا مسلمي الأندلس يخضعون تحت لواء الخليفة العباسى في بغداد ، كذلك أدرك حقيقة أنه يقيم إبان الرحلة في مدينة سامراً التي عبر عنها بسمى اكسيناري AXINARRI إضافة إلى أن الرحالة استخدم لقب أمير المؤمنين الذي عادة ما يطلق على الخليفة العباسى ويحتمل أنه عرف تلك المعلومات في أثناء تواجده بين المسلمين نظراً لما اعتادوا عليه بذكر اسم الخليفة والدعا له من فوق المنابر داخل المساجد .

غير أن اختيار أفراد الرحلة الثلاثة لمينا ، بارى ومنه إلى مينا ، تارنتوم TARUNTUM الواقع إلى الجنوب لكن ينطلقوا منه إلى هدف رحلتهم برغم خضوعه للمسلمين ما يلفت النظر ويشير التساؤل ، لماذا لم يتوجهوا إلى مينا ، آخر يقع تحت سيطرة القوى الأخرى المتنافسة في جنوب إيطاليا . ومدنا برنارد نفسه في موضع آخر بما يعد تفسيراً لذلك إذ يشير إلى الأحوال السياسية السببية التي سادت البلاد الإيطالية وانتشار الأشارر بها الذين يسرقون وينهبون حتى أنه لا يمكن لمن يمر بها أن يسير في أمان إلا في صحبة كبيرة مسلحة ، وبينما كان الوضع كذلك داخل إيطاليا ، أقر برنارد بأن الأمير المسلم في بارى اظهر تسامحاً واضحاً يتقدّمه التسهيلات ومدى العون للمسحيين المتوجهين لزيارة المقدسات في فلسطين سواء بالسفن أو بتسهيل مرورهم إلى مصر وغيرها من البلاد التي يجتازونها وأضافة إلى ذلك يمكن القول بأن الذهاب إلى بلاد اسلامية يكون أكثر يسراً حين يكون الخروج من مينا ، خاضع للسيادة الاسلامية .

على أيّة حال ، أتاحت المعلومات المتفرقة التي قدمها لنا برنارد فرصة التعرف على طبيعة العلاقات السياسية بين القرى المختلفة في جنوب إيطاليا وما يتعلّق منها بالقوى الأخرى ؛ حيث

(١٦) قسطنطين السابع : المصدر السابق ، ص ١٩ : راجع أيضاً : أرشيبالد (لويس) : المرجع السابق ، ص ٢١٥ :

Bury , J. B, Op. Cit , p. 213

Ibid , p.315 CF , Also.,

(١٧)

أرشيبالد (لويس) : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

أشار إلى قوة مسلمي الجنوب الإيطالي وسيطراً عليهم على بلاد منها تارنتوم ، وباري التي اتخذت عاصمة لهم بدليل إقامة الأمير المسلم فيها ، وفي المقابل تعرض برنارد إلى قوة أخرى في الجنوب الإيطالي ، وهم المسيحيون حيث تألفت في نظره من الأمراء اللمبراد المتنازعين في ظل سيطرة الإمبراطور الكارولنجي لويس الثاني ، بعد أن فرض نفوذه على بتنفتيبي وباقى الممتلكات اللمبرادية . ومن القوى التي ذكرها برنارد دولة رومانيا ROMANI موضحاً أن الأوضاع بها غير مستقرة ولعله يقصد بها الجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية حيث فرنسا . نظراً لأن أهلها كانوا يتحدثون لغة مشتقة من اللاتينية تعرف باللغة الرومانية ^(١٨) . وحينما ذكر أن سلطان أمير باري منع الحجاج خطابين يتضمنان وصفاً لهم معرفاً بأصولهم وهو يتموجهين إلى كل من دالي الاسكندرية ووالى بابلونيا (الفسطاط) بفرض تسهيل دخولهم إلى البلاد المصرية . بذلك يؤكد على قيام علاقات قوية بين الكيانات الإسلامية المختلفة التي استطلت برأية الخلافة العباسية التي لاتزال توحد كلمة المسلمين سواه ، أكانوا من الأغالبة أم من أتباع القادة الأتراك لدى الخليفة .

كذلك دون صاحب الرحلة مشاهدته لأحداث عايشها بنفسه عندما رصد حركة السفر في مينا ، تارنتوم ، وذكر أن ستة منها حملت تسعة آلاف أسير من أهالي بتنفتيبي إلى الموانيء الإسلامية ، وهذه إشارة لها دلالتها إذ تؤكد على أن الأعمال الحربية ظلت متواصلة بين مسلمي الجنوب الإيطالي والأمراء اللمبراد ، الأمر الذي يفسر استعانتهم بالإمبراطور الكارولنجي لويس الثاني ، كما تؤكد على أن كفة المسلمين كانت هي الراجحة في تلك الأونة إذ إن عدد الأسرى الكبير المذكور يعد خيراً شاهد على ما أحرزوه من انتصارات .

هكذا عرفنا برنارد ببعض الأوضاع السياسية السائدة من خلال رحلته في ذلك الوقت . وفي الصفحات التالية ، نتعرض للموضوع التالي في هذا البحث وهو ما يتعلق بالجوانب المضارى من الرحلة ، ويدوره يمكن تقسيمه تسهيلاً للدراسة إلى جوانب متعددة ، وبداية تتعرض للجوانب الدينية بما يتضمنه من زيارات ووصف لمزارات وكنائس وأديرة ، حيث احتوى على إشارات لبعض الجوانب العمارة لنشأت دينية . ويلاحظ أن ثقافة برنارد الدينية قد غلت على ما قام بيبراده في التفاصيل المتعلقة بهذه الجوانب .

بدت اهتمامات برنارد الدينية منذ بدء رحلته مع رفيقيه من أوروبا ، وذلك حين قدم وصفاً لكنيسة القديس ميخائيل ST. MICHAEL GARGA بأنها تقع بجوار جبل جرجانوس - MOUNT OF ST. ANGLO NUS (وهو معروف حالياً باسم جبل القديس أنجلو) ، والجبل يمتد داخل البحر المجاور ، وهو الأدرياتي بارتفاع يصل إلى ١٠٥٥ مترًا . وأوضح الحاج

(١٨) Oman , C. H, The Dark Ages , London 1908 , p. 409

راجع أيضاً : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ط٧ ، القاهرة ١٩٩٤ ، ج١ ، ص ٢٢٦ - ٢١٩ : ديفز ، (هـ.و) : المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٦ .

المسىحي كذلك أن الكنيسة ضمت ديراً به عده كبير من الرهبان واهتم بذكر اسم رئيس الرهبان ويدعى بنينجاتوس BENIGNATUS ، كما أشار إلى أشجار البلوط التي غطت سفح الجبل ، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى جنوح المسيحيين على مر العصور إلى تقديس هذا النوع من النبات^(١٩) لأسباب عقائدية يشار إليها لاحقاً . وعند العودة ذكر برنارد معلماً دينياً آخرأ لقديس يحمل ذات المسمى عرفه بسمى ميخائيل صاحب المقيرتين ST. MICHAEL OF THE TWO TOMBS ، وأن كنيسة أقيمت إيجاً، لذكراه فوق الجبل الناتي في بحر الشمال ، حيث تخفيط به الأمواج العاتية، كذلك أشار إلى أن الموقع يضم ديراً، وذلك بإيراده لاسم رئيس الرهبان فيه ويدعى فينونتيوس PIINIMONTIUS ، وهو مواطنه وزميلاً له حيث كان من مقاطعة برطانيا . وفي إيطاليا أوردة عدداً من المزارات والكنائس حيث الكهف ذو السبعة منابع عند جبل أورس MOUNT OF AUREUS أي جبل الذهب الواقع إلى الجنوب من توسكانيا TUSCIANO ، وكذلك ذكر كنيسة القديس بوزخنا العمداً في منطقة لاتران LATERAN شرقي روما التي أحسن بناؤها وكانت تضم قصراً للرجال الذين تولوا مهمة القاصد الرسولي . أما في الغرب من روما فتقع كنيسة القديس بطرس ST. PETER وبالمدينة تم دفن أعداد كبيرة من موتى القديسين المباركين .

وفي الإسكندرية مزارات شدت انتباه صاحب الرحلة : قبر القديس مرقس^(٢٠) الذي دعا إلى المسيحية ثم أصبح أسقفاً بها ، وكان الراوى قد سجل اعتقاده في أن الملائكة ميخائيل قام بتدفن القديس خلف البوابة الشرقية للمدينة ، الأمر الذي دعا المسيحيين إلى إقامة دير في هذا المكان سكناً كثيراً من الرهبان ، كما تم دفنه به . وسجل برنارد كذلك حقيقة تاريخية معروفة لدى البعض مفادها أن البنادقة المتمردين في ركوب البحر تمكنوا من نقل الجثمان إلى بلادهم . ويحدد البعض تاريخ وقوع هذه الحادثة بعام ٨٢٩م / ٢١٤هـ . في غفلة من الحراس^(٢١) .

THEODERICH , DESCRIPTION OF THE HOLY PLACES , TRANS . (١٩)
BY AUBERY STEWART , P.P.T. S. , VOL. V , LONDON 1896 , P. 53.

(٢٠) ترى الكنيسة المصرية أن القديس مرقس هو مؤسس كنيسة الإسكندرية ومحرص على أن يلقب خلفاؤه من بعده حتى اليوم بلقب «بابا الإسكندرية وسائر الكرارة المرقسية» نظراً لمكانته؛ فهو صاحب الأنجليل الثاني واستشهد في سبيل الدعوة . انظر : محمد عواد حسين وداود عبد داود : الإسكندرية في العصر البيزنطي ، منشوراً في تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، الإسكندرية سنة ١٩٦٣م . ، ص ١٠٠ : بطرس عبد الملك وأخرون : قاموس الكتاب المقدس ، مادة مرقس .

Attwalter,D., Dictionary of Saints , Penguin Books , London 1965, pp. 231 - 232,

انظر أيضاً : محمود سعيد عصمان : أركوف ورحلته إلى الشرق ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسط ، المجلد الثالث ، ١٩٨٥ ، ص ٣٣٧ .

وتشير الشواهد إلى أن دير القديس مارقس الذى قصده الزائرون هو ذاته ذلك الدير الذى أطلق بالكنيسة البازيليكية التى أقيمت فى العصر البيزنطى وحملت اسمه، وكانت تقع على شاطئ البحر ويمكن رؤيتها من السفن عند دخولها إلى المينا الشرقية، ولاشك أنها لم تكن تبعد عن الكنيسة المرقسية الحالية، وعند الفتح العربى كان ما يزال بها مدفن من المرمر يحوى جثمان

القديس^(٢٢). ثم يذكر صاحب الرحلة ديراً ذكر اسمه بدير الأربعين قديساً وحدد موقعه فيما وراء البوابة الغربية للمدينة ولعله الدير الذى تم إلحاقه بالكنيسة التى افتتحها القديس اثنا سبعين^(٢٣).

وفي مصر أيضاً شاهد برنارد الأهرام الثلاثة، واعتقد أنها مخازن الغلال السبعة التي أنشأها النبي يوسف (ع.م) مؤكدأ على أن إقامتها يعد أهم حدث شهدته مصر على مر الزمن. وفي هذا الصدد يتسائل الحاج المسيحي فلكس فابرى الذى زار مصر عام ١٤٨٣ م. ، قائلاً : «لماذا يذكر الحاج فيما مضى أن الأهرامات كانت مستودعاً لغلال يوسف (ع.م) ؟ وإننى لأعتقد أن سبب ذلك هو أن الأهرامات يمكن رؤيتها من بعيد ، وبها مدخل وعر يمكن الدخول منه إلى جوفها كذلك فإنها تقع فوق سرتفع يعلو بابلدون» ، أي القاهرة ومشتملاتها القديمة . ويستأنف فلكس حديثه قائلـ : « ولو أننى لم أرها عن كثب ، لكنت أعتقدت بسهولة أنها كانت تستخدم كمخازن للغلال ، لكن رؤيتى لها أكدت لي أنها كانت آثاراً خاصة بالوثنيين^(٢٤) » (الفراعنة) وبذلك فالواضح أن النزعة الدينية تغلبت على برنارد فيما اعتقد ، كما يتبيّن أن الحاج المسيحي كان يكتنفه قدر كبير من السذاجة ، وشع في المعلومات وقت الرحلة .

وخلال زيارة الفسطاط أيضاً ، ورد بالرحلة أن بها بطريركاً يتصرف ببركة الله في شئون الأساقفة والرهبان واليسوعيين في شتى أرجاء مصر ، وذكرت أن اسمه ميخائيل MICHAEL ولقبته بلقب DOM أي السيد ، وبالرجوع إلى المصادر المهمة بالتاريخ للكنيسة في الشرق يتبيّن أن بطريرك الإسكندرية عادةً ما ينتحب بطريركاً على مجلس مصر متخدماً من كنيسة الملاك ميخائيل المعروفة باسم فهادين في حصن بابلدون مقرًا له وهي تدين بالذهب الملكي أو الملكاني ، ولعل المقصود به الذهب الأثرية كسى إذ من المعروف أن غالبية مسيحي مصر يعتنقون هذا الذهب . ومن ناحية أخرى أورد سعيد بن بطريق المعاصر ، اسم اثنين من البطاركة : ميخائيل بن بكم وكان مصرياً ، المتوفى ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م ، فخلفه شخص آخر يدعى ميخائيل أيضاً كان من أهل روما . وعلى تجدهما يشجع الرهبان

(٢٢) داود عبد داود : فن العمارة في العصر البيزنطي ، منشور في تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور ، الإسكندرية ١٩٦٣ م. ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢٣) المرجع السابق : ص ٢١٢ .

Fabri Félix , Le Voyage en Egypte , 1483 A. C. , Trans Jacques Masson (٢٤) , Paris 1975 , Tome II . pp. 448 , 451

الثلاثة على زيارة هذه الكنيسة فربما كان الطريق فيها من بني جلدتهم . أما حينما توجه برنارد إلى مدينة تنبس ، فلم يهتم إلا بذكر ما احتوته من كنائس قديمة وأهلها المسيحيين وما وقع بها من أحداث ترجع إلى عهد النبي موسى (ع.م) وكانت المصادر قد أقرت بوجود كثير من الملائكة فيها (٢٥)

أما حينما وصل الراهب برنارد إلى مدينة الفرما ، فقد اهتم بذكر كنيسة السيدة مريم الكائنة فيها ، كما أشار أيضاً إلى حادثة نصيحة الملك إلى يوسف النجاشي بالخروج مع السيد المسيح (وهو طفل) وأمه ، في أثناء الرحيل من مصر . ويتضح من المصادر المعاصرة أن كنيسة الفرما كانت تحمل مكانة مرموقة بين كنائس مصر فإذا كان استفهامه له دوره المؤثر في الأحداث التي تخص المسيحيين (٢٦) . أما عندما وصل برنارد إلى مدينة غزة فعرفها بأنها مسقط رأس شمشون وهي تلك الشخصية المعروفة بقوتها الجسمانية الهائلة فضلاً عن أنه عمل قاضياً لبني إسرائيل مدة عشرين سنة (٢٧) . وحينما زار الزائر بمدينة الرملة في طريقه لبيت المقدس لم يذكر سوى دير القديس جورج على أنه يقع بالقرب منها .

أما عن الجانب الديني في القدس التي تعد الهدف الأساسي للرحلة فقد عنى برنارد كالعادة بالتعريف بأبرز رجال الدين فيها ، فذكر أن مسيحيي الأرض المقدسة اختاروا بطريركًا ليترأس جميع المسيحيين في المنطقة وكان يدعى ثيودوسيوس Theodosius وقد أقر سعيد بن بطريق ذلك ذاكراً اسمه ثاودورس وأنه اعتلى المنصب (٨٦٦ - ٨٨٤ م / ٢٧١ - ٢٩٢ هـ) . كذلك اهتم مدون الرحلة كثيراً بمقصارات المدينة ومزاراتها الدينية ، وأيضاً ببعض الأماكن المقدسة خارجها ، فباديء ذي بدء نجد يقول : « تم استقبالنا في بيت ضيافة الإمبراطور الأمجد تارلشز (أي الإمبراطور شارلمان Charlemagne ٧٦٨ - ٨١٤ م) حيث يتم السماح لكل من يتحدث

(٢٥) سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقين والتصديق ، بيروت ١٩٦١ م ، ص ٦٦ - ٦٩ . راجع أيضاً : يعيى بن سعيد بن يعيى الأنطاكى : تاريخ الأنطاكى ، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، طرابلس - لبنان ١٩٩١ م ، ص ٢٤ ، ٢٥٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ : ساويرس بن المفعع : تاريخ البطاركة ، المجلد الثاني (ب - ت) ، ج ١ ، ص ١٤ ، ٩١ ، ٩٢ : أما عن تنبس ، فقد وصفها ياقوت الحموي بأنها « جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط والفرمانى شرقها » ، راجع : معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩ م ، ج ٢ ، ص ٥١ ، ويرى أحد الباحثين أنها لاتزال موجودة إلى اليوم ، وتقع إلى الجنوب الغربي من بور سعيد بمسافة تسع كيلو مترات ، وبها بقايا من الطوب الأحمر المختلفة من أبنيتها القديمة . انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القاهرة ١٩٩٤ م ، ق ١ ، مادة تنبس

(٢٦) الفرما : « مدينة على الساحل من ناحية مصر ، وهى أول مصر من الشام ، وهى « شرقى تنبس قرب القطبة بين العريش والفسطاط ، على يمين القاصد لمصر . » ، انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٢٧) بطرس عبد الملك وأخرون المرجع السابق ، مادة (شمشون) .

اللسان الرومانى ويبقى التعميد بالوفود إليه ، وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشبيدها إحياءً لذكرى السيدة مريم ، وهى تضم مكتبة فخمة يرعاها الإمبراطور المذكور ، كما تحتوى أيضاً على اثنى عشرة مسکناً للإقامة وحقول وكرمات وأفنية في وادى جوزافات أو قدرنون. وتوجد سوق قبالة بيت الضيافة ». وهناك من يعتقد في أن دار الضيافة تلك كانت قد شيدت بغرض رعاية الحجاج المسيحيين في حوالي عام ٦٠٠ م. بناءً على أوامر البابا جريجورى الكبير Gregory The Great (٥٩٠ م - ٦٠٤ م) ^(٢٨). وبعد قرابة قرنين من الزمان أكدت المصادر على أن الإمبراطور شارلمان قد أحاط الأماكن المقدسة بعنايته ، كما كان يقدم المساعدات إلى فقراء المسيحيين المقيمين هناك ، وفضلاً عن ذلك كان يتابع أعمال الترميم والإصلاح للمنشآت الدينية في المدينة عن طريق مبعوثيه ، ومن بين أعماله البارزة ترميم دار الضيافة المشار إليها سالفاً . كذلك اهتم الإمبراطور بتشييد كنيسة على مقربة من هذه الدار كُرست للقديسة مريم حيث أقيمت الصلوات فيها باللغة اللاتينية بحيث ضمت مكتبة فاخرة ، وذلك على مقربة من كنيسة القبر المقدس ^(٢٩) . ومنع إدارة كل من دار الضيافة والكنيسة إلى الرهبان البندكتيين . وقد عرفت هذه المنشآت منذ فترة العصور الوسطى بالأبنية اللاتينية تمييزاً لها عن المنشآت البيزنطية الأخرى ^(٣٠) . والواضح أنها ظلت مقصورة على الزوار القادمين من الغرب الأوروبي حتى الغزو الصليبي للمنطقة . وللحظ هنا أن كنيسة مريم أو ماريا لاتينا وقية الأبنية اللاتينية الأخرى كانت هدفاً أولياً في زيارة برنارد للقدس حتى أنها سبقت زيارته للكنيسة القديمة مقر الضرع المقدس الذي يأمه كل مسيحي . بيد أن هذا الأمر يعد طبيعياً . فلعل أهم ما يهتم به الزائر هو إيجاد المسكن المناسب للإقامة فيه مدة الزيارة ، علامة على أن النزل الذي أقام فيه كان يدار من قبل رهبان كاثوليك من الطائفة البندكتية ، فكانوا بشاشة زملاء للزوار الرهبان الثلاثة ، ومن ثم لقيت هذه الأبنية الاهتمام الأكبر من برنارد فتصدرت كتاباته حينما دون ذكرياته عن القدس .

الجهة الراحلة في مرحلتها التالية داخل القدس إلى مجمع الكنائس وهو ما يطلق على مجده كنيسة القديمة الذي حظى باهتمام واضح ، فذكر الزائر الأوروبي أن هناك كنيسة مقامة في شرقى المدينة فوق جبل كلفارى Calevary حيث المكان الذي زعم أنه عُثر فيه على الصليب الحقيقي ، وتدعى كنيسة قسطنطين الباريلكية ، والمقصود به الإمبراطور الروماني قسطنطين

King, E. J., *The Knights Hospitallers in the Holy Land*, London, (٢٨)
1931 , p. 5.

ولمعرفة المزيد عن بطريركية القدس زمن الراحلة . راجع : سعيد بن بطريق : المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ . Einhard , the Life of Charlemagne , with a Fareward , by Sidney Painter , (٢٩) Trans . From Latin by Samuel Epes Turner , Michigan 1960 , pp. 42, 44 , 55 - 56.

De la ville la Roux , J., *Les Hospitaliers en Terre sainte et à Chypre (1100 - ٣٠) 1310* , Paris 1904 , pp. 5 - 7.

الكبير The Great Constantine ٣٠٦ - ٣٢٧ م. ، الذى امر بتشييدها ؛ كما أشار الرحالة إلى ثلث كنائس أخرى مجاورة : الضرع المقدس Holy Spulcher وكنيستين فى الجنوب والغرب دون أن يحدد اسميهما ، لعلهما كنيستا السيدة مريم وجيمس الحوارى James The Apostle نظراً لقربيهما . وقدنا الرحلة بعد ذلك ببعض التفاصيل المعمارية عن هذه الأبنية يشار إليها فى حينه . ثم يختتم برنارد وصفه لموقع كنيسة القيامة ذاكراً عنها «يقال أنها صرة العالم» . وورد في المصادر الإسلامية أيضاً «وصرة الأرض بيت المقدس^(٣١)» ، وعلبه فهناك اعتقاد مشترك بين المسلمين والكاثوليك في أن المدينة المقدسة تحتل فعلياً هذا الموقع . ولا غرو فهذا يعكس اتجاه معتنقى الأديان السماوية إلى تشريف هذه المدينة وإحاطتها بالقدسية .

وإضافةً إلى ما تم التعرف عليه عن كنيسة القيامة من خلال الرحلة ، فقد أشار صاحبها إلى كنائس أخرى تنتسب إلى مدينة القدس أيضاً ، إذ أورد أنه في الجنوب فوق جبل صهيون تقع كنيسة القديس سمعان St. Simeon حيث غسل فيها السيد المسيح أقدام حواريه كما يتدلّى الناج الشوكى الذي قيل أنه وضع على رأس السيد المسيح قبل الصليب ، وقد ذكر في المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم وبمراجعة هذه المعلومات اتضح أن الصواب قد جانب برنارد في إطلاق مسمى القديس سمعان على مجلل أبنية الكنائس الصغرى فوق جبل صهيون إذ إن المصادر المتاحة لم تشر البة إلى هذا القديس حين ذكرها للكنائس الصغرى المكونة للكنيسة التي فوق الجبل وهي ماعرفت في هذه المصادر بكنيسة جبل صهيون Church of Mt. Sion ، أما عن الموقع ، فقد أورده برنارد صحيحاً ، مخالفًا لما ورد في رحلة ويلبيا لـ Willibald السابقة زمنياً عليه ومتتفقاً في ذلك مع معظم المصادر اللاحقة . بيد أن هذه المصادر كانت أكثر دقة في تحديد الموقع بأنه في خارج المدينة ، وإلى الجنوب من بوابتها الجنوبية ، وكذلك في الحديث عن ارتباطها بذكرى وفاة السيدة مريم^(٣٢) . وهناك من المصادر ما يؤكّد أن كنيسة صهيون ظلت باقية حتى هدمت في عام ١٠٣٣ م / ٤٢٥ هـ^(٣٣) وهذا فيه ما يؤكّد على أن كنيسة صهيون كانت لا تزال

(٣١) ابن الفقيه الهمذاني : كتاب البلدان ، تحقيق : يوسف الهاشمي ، بيروت ، ص ١٤٥ ; راجع أيضاً بزيد من التفاصيل : ابن فضل الله العمري: مسالك الأنصار في عمالك الأمصار ، تحقيق دوروثيا كرافولسكي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٦م / ١٤٠٧هـ ، ص ١٢٤ - ١٦٨ .

Willibald , The Hodoeporicon of Saint Willibald , (Circa 754 A. D.) , (٣٢) Trans . by Rev. canon Brownlow , in B. B. T. S. , vol IV , London 1891 , p. 46 . Daniel The Russian , The Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy Land , Trans. by Wilson C. W in Palestine Pilgrims , Text Society , vol IV , London 1891 , p. 38 . William of Tyre , A History of deeds done beyond the sea , Trans. by Emily Atwater Babcock and Krey , New York 1943 , vol I , p. 61 .

الادرسي : نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق ، نشر : راشن مولر ، ليدن ١٨٩١م ، ص ١٢٦ .

(٣٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : المصدر السابق ، ص ٤٣٩ .

قائمة وقت الزيارة . أما عن تدلّى الناج الشوكي في الكنيسة ، فيبدو أنه كان أمراً مرحلياً بعثت لم يره الزوار اللاحقون ومن ثم لم يجد له ذكراً في كتاباتهم .

تعرضت الرحلة أيضاً إلى كنائس أخرى في إطار مدينة القدس بالإشارة فقط دون تقديم تفاصيل ذات أهمية إذ لم يذكر برنارد عن كنيسة القدس ستيفن سوى أنها تقع إلى الشرق من كنيسة جبل صهيون ، وفي الواقع رأى الزائر الصليبي سالف حوالى ١١٠٣ م. انقضاض هذه الكنيسة . وحدد موقعها في خارج أسوار القدس جهة الشمال^(٢٤) ، كذلك اكتفى برنارد بالإشارة إلى كنيسة القديس بطرس ، وحدد موقعها بأنها تقع إلى الشرق أكثر من الكنيسة السابقة وهي في الواقع تطابق موقع كنيسة التي تحمل ذكرى سجن القديس بطرس . ثم ما لبث أن اجتاز الرفقة ، الثلاثة بوابة صهيون التي بطبيعة الحال تؤدي إلى داخل المدينة ، حيث كانت المرحلة التالية من زيارتهم قد استهدفت المبنى الذي كان المسيحيون واليهود في تلك الأونة يعتقدون في أنه معبد سليمان Solomun's Palace أو قصر سليمان Mount of Olives حيث حمل اسم القدس الشريف ، وعلى كلِّ ، فلم يحظ المكان بتأي اهتمام من قبله . ثم أشار كذلك إلى بوابة حديدة حدد موقعها في جنوب المعبد ذكر ان ملاك الرب أخرج القديس بطرس من خلالها من السجن ، وبمضاهاة الموقع بما ورد بالأطلس المتخصص ، نجده يتطابق مع موقع بوابة الدباغين Tanner's Gate مضيقاً أنها كانت مغلقة وقت زيارته .

المجموعة التالية من المزارات والكنائس التي شملتها الرحلة تقع فوق جبل الزيتون Mount of Olives حيث حدد برنارد موقع كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا ، إلا أن هذا الأمر غير ثابت . كما أشار إلى كنيسة أخرى فوق الجبل حيث المكان الذي شهد صعود السيد المسيح إلى السماء ويوجد به كنيسة دائرة غير مسقوفة ويقع مذبح تحت السماء المكسورة في وسط الكنيسة أي في نفس مكان الصعود . وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقداس ولا يجد مجالاً للشك في أن هذه الكنيسة هي مجمع كنيستي الإلونا والصعود اللتان تعداد سرياً واحدة من أهم ثلاث كنائس قام الإمبراطور قسطنطين الكبير بتشييدها في القرن الرابع الميلادي ، علماً بأن كلمة إلونا تعنى باللهجة المحلية جبل الزيتون . ويجدر بالذكر أن الكنيسة التي رأها برنارد كان قد تم تجديدها نظراً لتهدم الأبنية البيزنطية القديمة^(٢٥) وعند النزول من الجبل تجاه الجنوب يوجد على

Saeuwulf , The Pilgrimage of Saeuwulf , Trans. from Original Latin , by (٢٤) Rev. Canon Brownlow, in P. P. T. S. , vol IV , London 1891 , p. 21

Crowfoot, J. W. Early Churches in Palestine . London 1941 . pp. 29 - 31 (٢٥) , Cf. Also , Boase , T.S. R. , Ecclesiastical art in the Crusader states in Palestine and syria , Architecture and sculpture , in Setton K. L. , vol IV , Weskenson 1977 , p. 71.

ويضيف « كروفورد » أن النشأت المقامة فوق جبل الزيتون تعرضت للتدمير على يد الفرس عام ٦١٥ م. ثم أقيمتها الرومان قبل الفتح الإسلامي للقدس ولكن ما لبثت أن تهدمت فأقيمت مرة أخرى بعد ذلك ، وعلمه يتضح للباحث أن تشييدها الأخير كان في وقت ليس بطويل قبيل زيارة برنارد .

بعد ميل واحد موضع بيثاني Beithany وبه دير يضم كنيسة بها ضريح القديس ليعازر St. Lazarus (وهو الرجل الذي قام السيد المسيح باحيائه ياذن الله بعد موته) . كما يوجد بجواره حوض ماء ، كان القديس قد اغتسل فيه . أما إلى الغرب من الجبل فقد أشار أيضاً برنارد إلى مزار عبارة عن كتلة من الرخام كان السيد المسيح قد استخدمها لبستوى على جحشه.

أما إذا ما انتقلنا إلى ما أوردته الرحلة عن المزارات والمنشآت الدينية فيما اعتبرته خارج القدس ، فقد أشارت إلى ثلاث مجموعات منها : الأولى ، وهي الواقعة في وادي وادى جوزافات وتضم عدة مزارات وكنائس حيث موضع بستان الجثمنية ، وهو المكان الذي شهد تعبد السيد المسيح وإلقاء القبض عليه نتيجة حادثة الخيانة . وما يذكر في هذا الموضع أن الرومان قد شيدوا فيه كنيسة لكنها تعرضت للتخريب على يد الفرس في عام ٦١٤ م. ^(٣٦) . ثم أشار برنارد إلى كنيسة وصفها بأنها ضخمة البناء في في موضع مسقط رأس السيدة مريم ، ولعله يقصد بذلك كنيسة القديسة هنا Anna St. والدة السيدة العذراء . أما الكنيسة التالية ، فهي كنيسة السيدة مريم التي وصفت بأنها « دائرة ويوجد بها ضريحها وهو غير مسقوف » وكانت إشارة برنارد إلى الضريح قد جعلت الباحث يرجع أن المبني الذي يعلوها هو كنيسة سيدتنا مريم Notre Dame ، أما في الوادي نفسه فكانت تقع بركة سلوان ^(٣٧) - Siloam التي كانت محطاً لأنظار الزوار .

وعندما توجه برنارد إلى المنطقة الجنوبية من فلسطين ، خارجاً من القدس ذكر مجموعة ثانية من الأبنية الدينية، حيث حظيت كنيسة المهد The Nativity في بيت لحم ^(٣٨) ببعض الوصف من الرحالة الأوروبي حيث أشار إلى ضخامتها ، وإلى سرداد في وسطها تحت الحجرة ، والطريق

(٣٦) بطرس عبد الملك وأخرون : المرجع السابق ، مادة جيسماني .

(٣٧) سلوان : عين تقع في وادي قدرون عند سفح الجبل ، مباركة عند المسيحيين لارتباطها بمعجزة السيد المسيح بأن رد بصر الأعمى فيها وأيضاً عند المسلمين لوقوعها في أرض القدس المباركة ، وقد أضاف ابن فضل الله العمرى وصفاً محدداً لها وما أورده عنها « ما زها قليل ليس بالكثير » ، راجع :

Daniel the Russian , Op. Cit., p. 38,

ابن فضل الله العمرى : لمصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٣٨) تم تشييد كنيسة المهد في عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير ، فكانت ثاني أهم البارزليكيات التي بنيت حين زيارة أمه القديسة هيلينا للأراضي المقدسة . وظلت الكنيسة محطة للزوار والحجاج الوافدين إلى القدس ولمعرفة المزيد عن التاريخ المبكر لها ، راجع :

Crowfoot , J. W., Op. Cit., pp. 22 - 30

إلى داخله يقع إلى الجنوب بينما الطريق إلى الخارج تقع إلى الشرق . وقد أقيم مذبح في المكان الذي أقام فيه السيد المسيح ، كان الناس يفدون إليه لحضور القداس والاحتفال . ثم أشار صاحب الرحلة إلى كنيسة أطلق عليها كنيسة الشهداء ، وحدد موقعها في الجنوب مباشرة من كنيسة المهد ، وأخيراً أشار إلى دير يقع في الجنوب للكهنة المقدسين على بعد ميل واحد من بيت لحم ويفهم من الإشارة أن المقصود بدير الكهنة هو أحد الأديرة الكائنة بالقرب من مدينة الخليل Hébron القائم عند شجرة البلوط المعروفة بشجرة ميري Mambre المباركة وبشر إبراهيم (ع.م) وذلك في قرية رامة الخليل ، الواقعة بالقرب من الطريق الواصل بين مدينتي الخليل والقدس ، وعلى بعد حوالي ميلين إلى الشمال من الخليل . وكانت الشجرة والمنطقة المحيطة موضع الدير قد اكتسبت قدسيتها عند النصارى نظراً لاعتقادهم في أن إبراهيم (ع.م) استظل بظلها ، حيث رأى الملائكة الثلاثة - الذين أشار إليهم النص بالكهنة المقدسين - هابطين من الطريق ليكونوا في ضيافته ، ولذا حرصوا على زراعة أشجار البلوط إحياءً للذكرى ^(٣٩) . وما يؤكد ذلك أن إحدى الدراسات المتخصصة تذكر أن رامة الخليل كانت تضم ديراً قبل الفزو الصليبي للمدينة عام ١٩٩١ م. ^(٤٠) .

اشتملت الرحلة أيضاً على ذكر مجموعة أخرى تضم مزارات تقع إلى الشرق من القدس وإلى غربها ، ففي الشرق تم الإشارة إلى دير القديس يوحنا المعمدان الذي يطل على مياه نهر الأردن إضافةً إلى العديد من الأديرة الأخرى كانت قد شيدت في المنطقة . أما في الغرب ، فتوجد كنيسة القديسة ماميلا St. Mamella التي أقيمت في موضع يحتوى على عدمن جثث الشهداء الذين ، قام المسلمون بذبحهم على حد زعم برنارد فقامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك . وبينما كانت هذه البقعة قد مسست قلوب الزائرين المسيحيين ، نجدها قد حظيت أيضاً بمكانة رفيعة في نظر الكثير من أهالي القدس المسلمين وماجاورها إذ حرص بعضهم على دفن موتاهم فيها لاعتقادهم في أنها أرض مباركة ^(٤١) وجدير بالذكر أنه لم يتم العثور في المصادر المتاحة على ما يبرر أو يؤكد ادعاءات برنارد في هذا الصدد .

كذلك أبدى الحاج الأوروبي اهتماماً بالاحتفالات الدينية فعييناً وصل الأرض المقدسة ، نقل لنا صوراً مما شاهده من احتفالات دينية : ففي بيت المقدس وعند الضرع المقدس ، ذكر أن

Sacwulf , Op. Cit., p. 24 , Daniel The Russian , Op. Cit., p. 45 , John of Wurzburg, Description of The Holy Land , Trans. by Aubrey Stewart , P.P. T. S. vol IV , London 1896 , p. 58 , Theoderich , Op. Cit, p. 53 ,

على الheroi : الاشارات إلى معرفة الزيارات ، نشر سورد بل ، دمشق ١٩٥٣ م. ، ص ٥٩ .

Vigorous , F. , Mambre , en Dictionnaire de la Bible , Tome III, Paris 1903 , Cols . 633 - 634.

(٤١) كثيراً ما ورد في كتب الترجم خاصه عند التعرض لوفاة بعض الشخصيات المقدسة أى المتنمية إلى بيت المقدس أنهم دفنتوا في ماميلا . راجع على سبيل المثال : العمام بن أبي الفلاح : شذرات الذهب في تاريخ من ذهب . ج . بيروت ١٩٧٩ م. ، أماكن متفرقة .

الزوار كانوا يحتفلون في يوم السبت المقدس أي عشية عيد الفصح إذ يبدأ القدس مبكراً في الكنيسة ، وبعد الانتها ، منه يتم ترتيل الأناشيد ، إلى أن يأتي ملاك يضرم النار في القناديل المتسلية ويدفع البطريرك بقبس من الضوء الناتج إلى الأساقفة ثم باقى الناس ، ويعتقد برنارد أن هذا الضوء يمكنه أن يضي ، المكان الذي يقف فيه كل منهم على زعم أنها كانت ناراً مقدسة كذلك أشار إلى القداديس التي تتلى في كنائس الصعود The Ascension والمهد وكذلك في دير الكهنة المقدسين الواقع في رامة الخليل . وفي الغرب الأوروبي ، تعرض برنارد إلى الاحتفالات التي تقام بمناسبة عيد القدس ميخائيل صاحب المقبرتين ، حيث كنيسته الواقعة على الجبل المطل على بحر الشمال مشيراً إلى أن الطبيعة تصفر وتهداً أمواج البحر لاستقبال الزوار القادمين للاشتراك في الاحتفالات والصلوات ، زاعماً أن ذلك لا يحدث إلا في ذلك اليوم .

وبعد التعرف على المعالم الدينية والاحتفالات الخاصة بها في رحلة برنارد ، ففيما يلى يتم التعرض إلى كل من العمارة الدينية والمحرية فيها ، ومن بين ثنايا المادة الخاصة بال زيارات والكنائس ، يمكن استخلاص بعض المعلومات التي قد تشكل إضافة في إيجاد تصور ما للعمارة الدينية في الموضع والبلاد التي شملتها الرحلة ؛ فقد وصفت كنيسة القدس ميخائيل عند جبل جرجانوس بأن مدخلها يقع جهة الشمال ، أما في الشرق في يوجد تمثال لهذا الملائكة في حين يقع المذبح الرئيسي جهة الجنوب حيث تقدم فرقه الأضافي في حين توضع الهبات في آنية خاصة معلقة قبل الوصول إلى المذبح وفي المكان الذي يضم الآنية يوجد عدد من المذاياح الأخرى ، وكان المبنى يسع ستين رجلاً ، ولكن هذا العدد الضئيل يشير إلى تواضعه . أما كنيسة القدس بطرس التي دفن فيها ، فقد وصفت بأنها تحتوى على زخارف متعددة ولا توجد كنيسة أخرى في نفس حجمها في العالم أجمع ، وهذا يوافق الواقع كما هو معروف .

وفي مصر ، أشارت الرحلة إلى أبنية الإسكندرية الدينية ؛ فذكرت دير القدس مرقس ودير الأربعين قدساً ، إضافة إلى كنيسة القدس اثناسيوس التي كانت لاتزال باقية ، وفي طريقه إلى القدس أشار الرحالة إلى كنائس تنيس القديمة وكنيسة السيدة مريم في الفرما ودير القدس جورج St. George في الرملة دون الدخول في أي تفاصيل تمكن من التعرف على عمارتها .

أما عن منشآت القدس الدينية ، فقد لقيت مزيداً من الاهتمام من قبل برنارد إذ قدم معلومات لها أهميتها عن الأبنية اللاتينية والمكتبة والمساكن الملحقة ، وكذلك كنيسة القيامة ، فذكر أنها بازيليكية ترتبط باسم الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير وأشار إلى الكنائس الثلاث الأخرى التي تكون مجمع كنيسة القيامة الكبير وكانت كنيسة الضربي المقدس إحداها فذكر أن بها تسعه أعمدة منها أربعة في الأمام وكانت لاتفصل بين هذه الكنائس الأربعه سوى الجدران المشتركة ثم أضاف أنه توجد مساحة غير مسقوفة توسط هذه الكنائس تعطى أرضيتها أنفس الأحجار ، وطلبت الجدران بالذهب في حين تدللت أربع سلاسل من تلك الكنائس ؛ والثابت تاريخياً أن كنيسة القيامة في ذلك الوقت كانت تحتفظ بلامعها البيزنطية القديمة التي يرجع معظمها إلى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير ، فبالرغم من تعرضها للتخريب على يد الفرس

حين غزوا القدس في عام ٦١٤ م إلا أن المهتمين بإعادة البناء التزموا بالنسق المعماري للكنيسة القديمة فظللت تحفظ به^(٤٢) حتى زيارة برنارد لها فوصفها بهذا الشكل المختصر ويرر عدم تقديم التفاصيل بأن المؤرخ الكنسي الإنجليزي بيده Beda قد أورد ذلك تفصيلاً في كتابه^(٤٣)، وما يؤكد وصف برنارد بأن الأبنية طلبت بالذهب ما ذكر على لسان الرحالة المسلم ناصر خسرو^(٤٤) الذي شاهد الكنيسة من بعده بحوالي مائة وثمانين عاماً.

أما في خارج القدس فقد كانت المعلومات شحيحة عن العمارة الكنسية، ففي حين قدم الرحالة الأولي نبذة عن كنائس : صهيون والكنيسة حنة والسميدة مريم والصعود والمهد تستشف من خلالها حجم الكنيسة أو شكلها العام ، نجد أنه لم يتطرق إلا بذكر الاسم والموقع لبعض الأبنية والأماكن الدينية الأخرى كما هو الحال بالنسبة للكنائس : القديس ستيفن والقديس بطرس والجثمانية، والشهداء والقديسة ماميلا ، إضافة إلى دير القديس ليغاز في بشيانى والدير الواقع من رامة الخليل ودير القديس يوحنا المعمدان .

وفيما يختص بالعمارة الحربية ، فيلاحظ أن برنارد الحكم لم يهتم كثيراً بهذا الجانب إذ أنه لم يتعرض إليه إلا نادراً ، وأبرز ما ذكر في ذلك الصدد ما أورده باقتضاب عن مناعة مدينة باري الساحلية وتحصيناتها ، إذ ذكر إنها محصنة بسورين سميكين من الناحية الجنوبية، أما من الناحية الشمالية فكانت محصنة بشكل طبيعي حيث يحدها البحر، وفضلاً عن ذلك فهي مرتفعة عن البحر ، الأمر الذي يجعلها تشرف في يسر على الساحل المجاور ، ولعل إشارة برنارد الحكم تلك تجعلنا نفسر ما أورده بعض المؤرخين عن قدرة المدينة في عام ٨٥٢ م على مواجهة حصار الامبراطور

Virgilio, C., Corbo O.F.M., Il Santo Sepolcro di Gerusalemme, (٤٢) Aspetti archeologici dalle origini al periodo eraciale , Franciscan Printing Press Je-rusalem , III vols., 1981 , vol I , pp. 223 - 228

Bede's Ecclesiastical History of the English People , ed. Bertram Colgrave and R. A. B. Mynors (Oxford Clarendon Press, 1969)

ولد (بيده) بالقرب من دير ويروموث Wearmouth في شمال شرق إنجلترا ، ووضع تحت رعاية الرهبان منذ السابعة من عمره ، ثم انتقل إلى دير جارو Jarrow وفيه قضى معظم حياته ، حيث نشأ وظهر طالباً للعلم وراهباً ومعلماً وكاتباً فقد عاش ومات قديساً بعد أن أصبح المؤرخ الأول لأوروبا في العصور الوسطى ، وتعلمها في تعين التواريχ الدقيقة ، للأحداث وترتيبها وفقاً لسلسلتها الزمني . واشتهر بتاريخه للكنيسة ولسير القديسين ، وعرف بين أقرانه باسم «بيده المجل

Bede وتوفي في عام ٧٣٥ م ، راجع :

Ibid . Preface , pp. 3 - 9

(٤٤) ناصر خسرو : سفر نامة ، تعریف وتحقيق يحيى الخشاب ، ط ١ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٥ م ، ص ٣٦ - ٣٧ .

الكارولنجي لويس الثاني^(٤٥) . ومن ثم فهذه الأحداث تتبع الفرصة في الاعتقاد بأن الحاكم المسلم في باري أسرع في تدعيم دفاعاته وقوية السورين المذكورين حتى لفتت تحصيناته أنظار برنارد فذكرها وذلك ضمن الاستعدادات الواجب اتخاذها في مثل تلك الظروف الحربية ، حيث كانت المنطقة تعانى من الصراعات السياسية بين عدة قوى للسيادة عليها .

وفي إطار الحديث عن العمارة الحربية ، فقد وردت إشارات في الرحلة أيضاً عن مدن ساحلية أخرى حيث مدينة الإسكندرية بيد أن مدون الرحلة اكتفى بذكر بابين فقط من أبوابها القديمة ، وهما الباب الشرقي والباب الغربي ، برغم أن أحمد بن طولون كان قد أبدى اهتماماً واضحاً بتجدد أسوار الإسكندرية وباباتها ، إلا أن هذا الاهتمام جاء في مرحلة تالية بعد أحداث الرحلة التي ثمت في السنوات الأولى من حكمه ، ومن ثم كانت المدينة لاتزال تحفظ حينها بخطيطها في العصور اليونانية والرومانية بشكل أساسى : وعليه يعتقد الباحث أن تكون هاتين البوابتين هما بوابة رشيد الواقعة عند بوابة الطريق العرضي الرئيسي الذي يعرف باسم المعجة العظمى ، والذي يمتد إلى البوابة الثانية غرباً المعروفة باسم القرافة ، وما يؤكد أن البوابة الشرقية - التي ذكرها برنارد - هي ذاتها بوابة رشيد تطابق موقع كنيسة القديس مرقس الذي أورد برنارد موقعها عند البوابة الشرقية مع ما أثبته الباحثون المحدثون فيما يختص موقع بوابة رشيد^(٤٦) .

وفيما يختص بالجانب الاقتصادي في رحلة برنارد الحكيم فإن النشاط التجارى يعد أهم ما انطوت عليه في هذا المجال ؛ فبداية نبهنا إلى المكانة الكبيرة التي احتلها مينا تارنتيوم الإسلامي بين الموانئ الإيطالية فيما يتعلق بحركة النقل البحري والعلاقات التجارية بين أوروبا ومنطقة الشرق الأدنى الإسلامي زمن الرحلة . وفضلاً عن ذلك أكد على أهمية مينا الإسكندرية التي كانت متنه رحلة الذهاب البحري ، ولم يكن ذلك من فراغ ، فمن المعروف أن الإسكندرية في ذلك العصر كانت غالباً ما تمثل حلقة الوصل بين تجارة الأسواق الشرقية حيث الصين والهند والبحر الأحمر بموانئ أوروبا في الغرب^(٤٧) . لكن الحاج الأوروبي اقتصر في

(٤٥) Oman , C. H., Op. Cil. p. 452 , Bury, J. B., Op. Cit. , p. 315 ,

راجع أيضاً : أرشيبالد . ر. لويس : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٤٦) تقع بوابة رشيد في طريق الحرية قرب إلقطانه بشارع الشهيد صلاح مصطفى (السلطان حسين سابقاً) من اليمين وشارع بلجيكاً من اليسار . وكانت هذه البوابة هي البوابة الرئيسية التي يدخل منها القادم من الفسطاط ، راجع : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٨٢ م. ، ص ٤٤٤ - ٤٤٨ .

(٤٧) اشتهرت الإسكندرية منذ العصر البطلمي بصفتها قاعدة رئيسية للتجارة البحرية ، ففاقت موانئ مصر الأخرى في هذا المجال ، إذ كفلت لها ترعة شيدياً الاتصال المباشر بطريق القوافل إلى مصر العليا مروراً بالنيل ، كما كانت تستقبل ما تحتاج إليه مصر من العالم الخارجي وتصدر الفائض من ثرواتها ، وكذلك ما ينجد إليها من إفريقيا والشرق ، راجع : لطفي عبد الوهاب : عصر البطالمة ، الإسكندرية ==

هذا الموضع على التحدث عن تجارة الرقيق ذاكراً أن مسلمي جنوب إيطاليا قاموا بنقل مجموعات من المباردين ، كانوا قد وقعوا أسرى خلال المروب مع بنتبيو إلى تارينتيوم بلفت أعدادهم تسعة آلاف أسير قسمت إلى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة تضم ثلاثة آلاف نقلت كل منها إلى موانئٌ : تونس وطرابلس (الغرب) والإسكندرية ، مكملاً لما أورده الرحالة المسلمون العاشر ابن خرداذة في هذا الصدد الذي ذكر أن التجار اليهود كانوا يجلبون من الغرب حيث بلاد الفرنجة ، الخدم والجواري والفلمان وكثيراً من السلع الأخرى إلى مصر ، ومنها تنتقل إلى ما يليها من بلاد^(٤٨) . وعليه يتضح أن الأسري الذين شاهدتهم برنارد ماهم إلا رقيق من النوع الأبيض ، أما تقسيمهم إلى مجموعات ثلاثة على هذا النحو فكان بفرض الحصول على أعلى قيمة تدفع مقابل هذه الأعداد بتوزيعها على عدة أسواق .

وفيما يتعلق بالناحية الاقتصادية أيضاً أمدتنا رحلة برنارد بمعلومات مهمة عن الطرق التجارية المعروفة في ذلك الوقت ، إذ أشار إلى الطريق البري بين جبل جرجانوس في الشمال وباري وقدره بمائة وخمسين ميلًا . كما ذكر أنه انتقل من باري إلى تارينتيوم عبر طريق قدر طوله بتسعين ميلًا ولم يحدد وسيلة الانتقال بين هذين الميناين البحريين ، إلا إنه من الواضح أنه انتقل بينهما عن طريق البر وليس البحر ، إذ إن المسافة المذكورة بينهما تقارب الواقع برأي ، في حين أن الطريق البحري يبلغ أضعاف هذه المسافة . أما الطرق البحرية التي أشار إليها فتبدأ من تارينتيوم حيث تنتهي إلى : إفريقيا وتونس وطرابلس والإسكندرية ، وقد استغرقت رحلته عبر الطريق الأخير مدة ثلاثة أيام . وفضلاً عن ذلك استخدم صاحب الرحلة النيل في انتقاله من الإسكندرية إلى الفسطاط صعوداً ومنها إلى دمياط هبوطاً ، فامتدت رحلة الذهاب إلى ستة أيام ، في حين استغرقت رحلة العودة إلى دمياط ما يزيد على ثلاثة أيام .

وإضافة إلى هذه الطرق البحرية والنهرية ، تعرض برنارد إلى الطريق البري الذي يربط مصر ببلاد الشام ، الذي سلكه هو ورفيقه إلى فلسطين ، فبعد مغادرته ت尼斯 ، وصل إلى مدينة الفرما ومنها إلى العريش وغزة والرملة وعمواس ثم إلى مدينة بيت المقدس ، ويتبيّن من ذلك أنه سلك طريقاً داخلياً يخترق الأودية التي لا تفمرها مياه المطر إلا شتاءً ، وكان يقع بين طريق يانا – القدس إلى الشمال منه ، والطريق الواسع بين الرملة فالخليل فبيت لحم فالقدس ، الواقع إلى الجنوب . أما عن أولى محطاته ، فهي الفرما حيث يذكر عنها أنها ضمت مركزاً لجتماع الجمال التي يؤجرها الأهالي للغرباء لحمل أمتعتهم تحسباً لرحلة تبلغ ستة أيام عبر الصحراء ، وهي

= = ، ص ٣٠٢ ، والثابت أن المدينة حافظت على وضعها المتميز طيلة القرون ، ويرغم اضمحلالها نسبياً قبل حلول القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري إلا أن ابن فضل الله العمري ، وصفها في هذا الوقت قائلاً : « والإسكندرية هي فرضة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم وبها ترد شوانبها وتجلب بضائعها ومنها تخرج أغراضها » ، راجع : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٤٨) ابن خرداذة : المسالك والمالك ، ليدن ١٨٨٩ م ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

المدة التي تستغرقها الرحلة من الفرما إلى العريش ، وقد نوه المؤرخ المسلم المتأخر نسبياً المقريزى غير مرة إلى هذا الطريق باسم طريق الرمل المتبد قرب الساحل ابتداءً من الفرما وصولاً إلى العريش فغزة ومنها إلى سائر الشام ، في حين أكد الرحالة ابن خرد ذابة على أهمية مدينة الفرما كميناء بحري وكثغر حربي يسمح بدخول وخروج السفن كما يذكر المقدس البشارى أنها : «عامة ، آهلة ، عليها حصن ولها أسواق حسنة»^(٤٩) . كل هذا جعل من الفرما محطة تجارية هامة انطلقت منها القوافل التي تعبر شبه جزيرة سينا ، جهة الشمال الموازي لساحل البحر المتوسط .

ومن معالم طريق الرمل ، يسجل برنارد وجود نزلين أو دارين للضيافة يقعان في وسط الطريق وذكر اسميهما : الباتشارا Albarra والبارا Albarra ، وأنه كان بجوارهما يانعون يدون المسافرين بما يلزمهم من حاجيات وكانوا من المسيحيين والمسلمين إلا أنه ينبغي التعرف على موقع كل من هذين النزلين ، فلعل موقع الباتشارا يطابق المنطقة الأثرية بتاشوبينوس الواقعة على الطريق الساحلى جنوب شرقى بحيرة البردويل ، في حين نجد مسمى البارا قريباً نسبياً من رأس بارون الواقع على الشريط البابسى بين بحيرة البردويل والبحر المتوسط^(٥٠) ، وعليه يتبع أن الدولة العباسية حرصت على تنشيط حركة التجارة على طريق الرمل الحبوى ، بغية ربط أوصالها المترامية بأن أحاطت هذين النزلين برعايتها خدمة للمسافرين ، وثمة ظاهرة أشارت الرحلة إليها تتمثل في أن الأقباط كانوا لا يزالوا يلعبون دوراً ما في مجال التجارة داخل المجتمع المصرى الإسلامى .

أما عن الأسواق ، فيذكر برنارد الحكيم أن أحداً كان يقع أمام بيت الضيافة الذى نزل فيه فى بيت المقدس وأن المشرف على السوق كان يتلقى قطعتين ذهبيتين (أى دينارين) كل عام من كل شخص يقيم به ؛ وتوضيحاً للأمر فمراجعة المراجع يتبين أن من يقوم بهمة الإشراف على الأسواق فى الدولة الإسلامية كان يعتلى منصب المحتسب وهو منصب قضائى . شهد تطوراً فيما أوكل إليه من مهام ، فبعد أن كان منصباً دينياً أخلاقياً غالباً يقوم بخدمات اجتماعية اقتصادية ، ثم مالبث أن تطور بتطور الحياة فى المدن فأصبح اقتصادياً بالدرجة الأولى ، يهتم بالإشراف

(٤٩) المقريزى : الموعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأثار ، القاهرة ١٣٢٤ هـ . ج ٢ ، ص ٢٠٠ : ابن خرد ذابة: المصدر السابق ، ص ١٥٣ : المقدس البشارى : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٩١ م ، ص ١٩٥ .

(٥٠) أحمد فخرى : تاريخ شبه جزيرة سينا ، منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام ، نشرت في موسوعة سينا ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٦٧ - ١٢٣ ؛ وجدير بالذكر الاشارة إلى أن هناك اعتقاداً أن للإسمين مدلول لغوى فايس الباتشارا يعني البكرة ، أما البارا فتعنى البر ، وربما يعنيان : البحر والبر ، ويرى چون ولكن دون أن المقامين قد يكونا ببرى : كاسيوس Casius وأوستراكين Ostrakine ، راجع :

Wright , T. , Op. Cit , p. 25 , no. 2. Tobler, T. Dictionnaire de la Terre - Sainte, Paris 1969, p. 405, Wilkinson, J., Op. Cit, p. 149.

على الأسواق وصحة الموازين والمكاييل ومنع الغش ، ويستند في عمله إلى مجموعة من العرفة بصفتهم معاونين له . وفي كثير من الأحيان كان يطلق على عامل الحسبة اسم والى السوق أو صاحب السوق^(٥١) . وهكذا نجد برنارد قد من مرة أخرى جانباً من النظم الإدارية التي سادت المجتمع الإسلامي في ظل الخلافة العباسية ذات السيادة ، حينما فطن إلى ما يجتبه المحاسب من ضرورة على أصحاب المحال التجارية في السوق الإسلامي .

أما عن وسائل النقل المستخدمة زمن الرحلة ، فنجد بها إشارات إليها : ومن ذلك السفن الست التي بلغت حمولة كل منها ألفاً وخمسمائة راكب واستقل أفرادها واحدة منها ، تولى قيادتها قبطان على رأس ستين ملاحاً قام بالشراف على كل شيء حتى التعامل مع الزوار الثلاثة . وهذه المواصفات التي قدمها برنارد عن السفن تقترب في وصفها من السفن الحربية الضخمة المعروفة باسم الشيني أو الشيني الغزواني التي أشار إليها معجم السفن الإسلامية ، وذكر أن بها حوالي مائة وأربعين مدفعاً وتحمل أحجاماً ألفاً من المحاربين وكان يقام فيها الأبراج وصهاريج للما ، ومخازن للعبوب وهي بذلك معدة لأعمال الهجوم والدفاع^(٥٢) . أما حينما ارتحل الثلاثة عن الإسكندرية إلى الفسطاط نجدهم استخدمو إحدى السفن بالنيل وكان النوع السادس منها يُعرف بِسْمِي المراكب النيلية لاقتصرها على المرور في النيل والترعرع المتفرعة لنقل التجارة أو المسافرين ، وقد قال المقرizi عنها : «وأما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر في النيل صاعدة إلى أعلى الصعيد ومنحدرة إلى أسفل الأرض لحمل الغلال وغيرها»^(٥٣) وفي البر كانت الجمال الوسيلة المستخدمة للوصول إلى القدس .

وإذ نحن لازلنا بقصدتناول النواحي الاقتصادية ، نجد ذكرأ للعملة في رواية برنارد إذ تطرق إلى الحديث عنها في عدة موضع : فذكر القطع الذهبية من دينار وصولدى Solidi^(٥٤)

(٥١) حسن إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامي السياسي ، القاهرة ١٩٦٢م ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ : راجع أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : العصر العباسي الأول ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ! ولمزيد من الفاصل ، انظر : سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى نهاية العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٤٢ - ٦٦ .

(٥٢) دروش النحيلي : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤م ، مادة شيني ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٥٣) المقرizi : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ١٩٥ : راجع أيضاً : دروش النحيلي ، المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٥٤) لفظة دينار مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية Aureus - Denarius ، وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب قبل الإسلام وبعده ، وضبط الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في عام ٦٩٣ هـ / ٧٤ م. عبار هذه السكة الذهبية بحيث أصبح الوزن الشرعي للدينار الإسلامي ٤،٢٥ جرام ، عيار ٤٣٪/٤ قيراط ، واحتفت الصور من نقش واستبدلت بالعبارات التي تشير إلى شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وتاريخ الشرب . انظر : عبد الرحمن فهمي محمد : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٨ - ٩ .

والثابت أن التعامل بهذه العملات كان قد ساد الجنوب الإيطالي إذ عرفت بنفيتيو على سبيل المثال الصولدي الذهبي قبل الغزو الكارولنجي ٧٧٤ م. وظلت بعد ذلك تتعامل بالصولدى الخاص بها وما بثت أن تأثرت بالغزو ، فعرفت الدينار الفضى الكارولنجي ، وسرعان ما أحبى التعامل بالصولدى الذهبي : ولكن هبط بما يزيد عن الثلث فى قبعته حتى استيلاء لويس الثانى الكارولنجي عام ٨٦٦ م على المدينة ففرض التعامل بالدينار الخاص به ^(٥٥) . وعلى كل ، فمن الملاحظ أن العملات الواردة في الرواية خضعت للتعامل بين أفراد الرحلة ومسلمي المنطقة الذين كان لديهم عملتهم المعروفة بالدنانير الذهبية العباسية التي ظلت متداولة في كل من مصر والشام وقت الرحلة حتى استبدلت بدنانير ابن طولون الأحمدية في عام ٨٨٠ م / ٢٦٦ هـ . بعد توحيد مصر والشام ^(٥٦) ، وعليه كان من الضروري وزن القطع الذهبية التي في حوزة الزوار لتقديرها . وهذا ما أشار إليه برنارد بالفعل ذاكراً أنه من عادة المسلمين معادلة العملات الأجنبية (التي معهم) بالعملات المحلية بالاسكندرية حيث تم معادلة الستة صولدات والستة دينارات من عملتهم بثلاثة صولدات وثلاثة دنانير من العملة المحلية ، وهذه القاعدة الاقتصادية أثبتتها المؤرخ الشهير عبد الرحمن ابن خلدون حين أورد نزوم وجود معيار تقييمها لقيمة العملة «على أن يتم التعامل بها بعد ذلك عدداً فإن لم تقدر أشخاصها يكون بها وزناً» ^(٥٧) ونخلص من هذا إلى أن العملة الإسلامية العباسية كانت قوية بالقدر الذي أصبحت به تعادل ضعف مثيلتها التي كانت في حوزة الزوار القادمين من أوروبا الغربية .

أثارت المعاملات النقدية لدى برنارد وزميليه إحساساً بأنهم تعرضوا للابتزاز من السلطات الإسلامية ، وأشار صاحب الرحلة إلى ذلك غير مرأة ، بل أفصح صراحة عنها أخيراً كما ورد في النص . ولنا هنا وقفة للتعرف على المواقف التي جعلت هذا الإحساس يتسلل إليهم : ويتلخص الموقف الأول في أن الحجاج اتهموا قبطان السفينة التي نقلتهم من تاريتو إلى الاسكندرية بأنه منعهم من الهبوط إلى الشاطئ ، «ولكن حين أعطيناهم ست قطع ذهبية سمعت أمامنا الفرصة للنزول إلى البر بعد أن تم السماح لنا بذلك» أما الموقف الثاني فعندما قابل الحجاج الثلاثة حاكم

= أما الصولدى فهي عملة رومانية ذهبية قديمة استبدلت بعملة التومسما Nomesma في الإمبراطورية البيزنطية في العصر الوسطى التي أطلق عليها فيما بعد بيزانت Besant ، كانت تتعذر باستقرار قيمتها الذهبية وتنافر وزنها الحقيقي بين ٣،٨٨ ، ٤٤ ، ١٤ جرام من الذهب . ولمعرفة المزيد عن هذه العملة ، راجع : عزيز سوريان عطيه : المرجع السابق ، ص ٢٧١ . وقد عبر النشر ولكنسون عن العملات في النص باستخدام لفظي الجنيه Shilling والشلن guineas وهو ماجزاً عن الجنيه ، ربما لرغبتهم في تقويف الصورة للقارئ .

(٥٥) Christies Neil, Op. Cit., pp. 219 - 220.

(٥٦) على إبراهيم حسن : مصر في المصادر الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح الممالي ، القاهرة ١٩٤٧ م . ص ٢٩٩ : عبد الرحمن فهمي : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٥٧) ابن خلدون : المقدمة (التسلسل السادس والثلاثون في شارات الملك والسلطان الخاصة به) ، القاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م ، ص ٢١٨ .

الإسكندرية وسلموه خطاب سلطان الذى يحمل وصفاً لأشخاصهم وهو ياتهم «لم يحرك ساكنا حباله برغم أنه لم ينكر محتواه وأمام هذا الموقف قام كل منا بإعطائه ثلاثة ديناراً أخذها لنفسه، وحيثند قام بتحرير خطابات لنا لتقدمها إلى حاكم بابلونيا» (الفسطاط). أما الموقف الأخير فيقول برنارد عنه: «وب مجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها إلى المحاكم (ابن طولون ذكره باسم أدلشام Adelacham) فسألنا عن هدف رحلتنا وعن الأماء الذين نحمل خطابات منهم؛ ولذا أربنا خطابات كل من: سلطان... وحاكم الإسكندرية ولكنها لم تنفعنا بشئ، وعليه قام بآيداعنا السجن، وبعد ستة أيام خطر ببالنا بعون من الله، بأن يعطى كل منا هذا المحاكم مبلغ ثلاثة دينار كما حدث في المرة السابقة، وحيثند قام المحاكم بمنعنا خطابات لم يجرؤ أحد من شاهدها في أي مكان أو مدينة على أن يبترنا مرة أخرى... غير أنه حينما كنا ندخل أيًا من المدن التي سيلى ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو دينارين».

وبعد استعراض هذه المواقف من واقع كتابات صاحب الرحلة يتبيّن أن الشرق الإسلامي عرف نظماً إدارية دقيقة لم يكن الأوروبيون يألفونها فأسبي، فهمها من قبلهم وأعدوها نوعاً من الابتزاز إذ يذكر المؤرخ المسلم المعاصر ابن الديّة المتوفى حوالي ٣٢٠ هـ / ٩٤١ مـ، أن موسى أخو أحمد بن طولون طلب منه جوازاً للسفر بترك الديار المصرية. وفي موضع آخر ذكر المؤرخ رواية فعواها أن تاجراً أراد أن يجتاز الحدود عند العريش ومعه خادمه بجواز سفر واحد للتجارة، فاستوقفه حبيب المعرى مسئول الجمارك لاعتقاده أن الخادم يلزم بجواز سفر مستقل، وبعد مقابلة التاجر مع أحمد بن طولون تم استخراج جواز سفر قانوني مستقل للخادم^(٥٨) وعلى هذا ترى إحدى الباحثات أن حكومة أحمد بن طولون كان لديها إدارة لجوازات السفر والجمارك^(٥٩)، ومن ثم نجد بين أيدينا دليلاً يؤكdan على أن مصر عرفت ضوابط داخلية تنظم حركة المسافرين منها أما عن الضوابط التي تنظم حركة الوافدين إليها، وانتقالات الأجانب الداخلية وانطلاقاً منها، فيمكن الوقوف عليها من خلال ما أورده الراهب برنارد من المعلومات المتعلقة بهذا الشأن.

لعل إدراك واقع التنظيم الإداري والجمارك وحركة الانتقال في مصر على هذا النحو يعطى الفرصة لفهم المواقف التي تعرض لها برنارد ورفيقاه على حقيقتها، كما يمكننا من خلالها التعرف على جانب من القواعد المتبعة للتعامل مع الأجانب الوافدين؛ ففيما يختص بالموقف الأول فالواضح أن قيامهم بدفع ست قطع ذهبية إلى قائد السفينة كان بمثابة أجرة نقلهم على السفينة عن رحلة امتدت من تارينتو حتى الإسكندرية إذ إنه عاملهم بصفتهم ركاباً ليسوا كبقية من كانوا على ظهر السفينة من الأسرى المعفرين بالطبع من دفع الأجرة، أما الموقف الثاني

(٥٨) ابن الديّة: سيرة أحمد بن طولون، نشره فولرز منجار، عام ١٨٩٥ مـ.

(٥٩) سيدة إسماعيل الكاشف: أحمد بن طولون، القاهرة ١٩٦٥ مـ، ص ١٧٧ - ١٧٨

فإن دفع مبلغ ثلاثة ديناراً (الذى عدله الناشر ولكنسون وجعله ثلاثة ديناراً) إلى إسحق بن دينار والى الإسكندرية كان عبارة عن تحصيل رسوم تجبي من زوار الإسكندرية الأجانب للسماح لهم بالدخول ، وللحصول على خطابات موجهة إلى أحمد بن طولون والى الفسطاط ، إلا أنهم ظنوا فى أن والى الإسكندرية حصل هذه الأموال لنفسه . أما الموقف الثالث وهو عندما اضطروا لدفع مبلغ ثلاثة دينار آخر عن كل ي منهم (عدله ولكنسون وجعله ثلاثة عشرة ديناراً) إلى والى الفسطاط ، فيرجع أنه أمر ضروري استكمالاً لإجراءات الحصول على تصريح نهائى يخول لهم حرية الحركة فى البلاد التى يرغبون فى زيارتها ، بدليل أن برنارد نفسه أمر بأن أحداً لم يجرؤ بعدها على ابتزازهم مرة أخرى ، ولا يفوتنا فى هذا الموضوع الإشارة إلى الأوضاع داخل مصر ، إذ كان والى الإسكندرية ابن دينار لم يخضع بعد لسيادة أحمد بن طولون ، الأمر الذى أوجد ازدواجية فى التعامل مع الزوار الأجانب فيه، كلتا الولايات . وبينما تنتهى الإجراءات مع هؤلاء الأجانب على هذا النحو ، كان عليهم الخضوع للنظم الإدارية المحلية التى تقضى بدفع الرسوم الزهيدة التى قدرها الحاج الأوربى بدینار أو اثنين لانتقال من مدينة إلى أخرى فى البلاد الإسلامية فى أثناء الرحلة بعد مغادرتهم للفسطاط .

أما الزراعة فقد أرجى ، الحديث عنها ضمن الجانب الاقتصادي ، إذ بالرغم كونها الدعامة الأساسية لاقتصاديات مصر فى هذا العصر ، فإنها لم تحظ إلا بقدر يسير من اهتمامات برنارد الحكيم فى مدونته ، إذ اكتفى بالإشارة إلى حقيقة أن النيل أو جيرون - حسبما أورد - هو الذى يروى مصر ، ثم تعرض إلى منطقة شمال سينا ، وهو فى طريقه إلى فلسطين ذاكراً أنها مقفرة ليس بها أى من المحاصيل أو الأعشاب ، ولا تنتج إلا التحليل الذى رأه أبيض كما هو الحال فى البلاد التى يغطيها الجليد . والواضح أن برنارد اجتاز الصحراء فى وقت الرياح بينما تنشط الرياح بها ، محملة بالرماد والأتربة التى كست التحليل بلونها الأبيض الأمر الذى جعله يقرن بين الأمرين ، أما مدينة غزة ، فقد سجل عنها برنارد أنها بلدة مشمرة غنية للغاية بكل المنتجات .

وننتقل فى صفحات البحث التالية إلى دراسة ما ورد فى رحلة الراهب برنارد فيما يختص بالناوحي . الاجتماعية : إذ تعرض فى حديثه إلى أهل الذمة من المسيحيين داخل المجتمع الإسلامي فى مصر وفلسطين . ويرغم أنه عنى فى حديثه بطائفة الكاثوليك منهم بالإشارة إلى بطريركهم المنتخب فى كنيسة الجليل ميخائيل بالفسطاط إلا أن سياق الرحلة فيما بعد يتعرض للحديث عن المسيحيين بطوائفهم المختلفة فى المجتمع الإسلامي فى معظم الأحوال . ولعل فى وجود نظام اجتماعى قائم على وجود بطريرك يشرف على المسيحيين ، ما يؤكّد تسامح الحكماء المسلمين حيناً لهم حتى أنهم أبقوا على كثير من الأنظمة التى ألغوها من قبل الفتح ، وهذا ما أكد عليه أيضاً المؤرخ النصرانى يحيى بن سعيد الأنطاكي ، وما يذكره فى هذا الصدد ، بقاه أنشطة المسيحيين الاجتماعية والدينية حتى زمن الرحلة وما بعدها تحت إشراف من بطريرك حصن بابلون فى كنيسة الجليل ميخائيل وبطريرك الإسكندرية^(٦٠) .

(٦٠) يحيى بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

كذلك عنى صاحب الرحلة بالتعرف إلى بعض مراكز تجمع المسيحيين وأنشطتهم في المدن التي مر بها ، فحينما قصد تتبس وصفها بأنها مدينة يسكنها مسيحيون دفعهم تدينهم الشديد إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد ، كما أن بها عدداً من الكنائس سجلت المصادر اسم اثنتين منها وهما : كنيسة أبي جبلة « وهي كنيسة أهل الملة الجامعة التي الأسف نازل بها » ، وكنيسة أبي مينا التي قام أسقفها المعروف باسم « ثاوفيلس بن الشقى » في عام ٩٣٩ م / ٣٢٨ هـ ، بترميمها ووقف الأوقاف عليها الأمر الذي يوحى بوجودها وقت الرحلة . وفي مدينة الفرما ذكر برنارد أن بها كنيسة مريم المباركة ، وجدير بالذكر أن هذه الكنيسة تضم كرسى أستفانى . ولعل هذا المركز الدينى للمدينة هو الذى شجع القبط على سكناها وفقاً لما أورده ياقوت الحموى ^(٦١) وأخيراً فالرحلة تشير إلى مجتمع مسيحي آخر وهم الذين عملوا كبانعين عند نزلى البشارا والبارا على طريق الفرما - العريش . وفي بيت المقدس سجل الرحالة ملحوظاته عن المسيحيين فيها من أن الوالى العباسى عليها (وهو أحمد بن عيسى) كان يسمح لكل من يتحدث اللسان اليونانى ويرغب فى التعبد بالوفود إليها ، وهو بذلك يقصد الزوار القادمين من أرجاء أوروبا وخاصة من بلاد الامبراطورية البيزنطية ، نظراً لأنها عادة ما كانت تشرف على كنيسة القيامة بتصریح من الخليفة العباسى . ومن ناحية أخرى ، فتنصيب بطريرك ، يتم اختياره للمدينة يشرف على الشئون الدينية للأهالى من المسيحيين فيها ، يؤكّد على وجود مجتمع لهم في فلسطين وخاصة في القدس .

تعرضت الرحلة أيضاً إلى جانب اجتماعي آخر منهم ، ألا وهو ما يتعلّق بالضريبة الواجب على أهل الذمة دفعها ، وعرفت في المجتمع الإسلامي بالجزية ، إذ ورد بالرحلة أنه كان هناك قانون يسرى على كل من المسيحيين وكذلك مأساهم صاحبها بالوثنيين Jentiles ، يقضى بأن يدفع كل شخص عن نفسه ضريبة سنوية إلى السلطات ، مثلثة في الوالى مقابل أن يبقى آمناً وحرماً ، وقد قدر برنارد هذه الجزية بواحدة أو اثنتين أو ثلاث قطع ذهبية أى دنانير ذهبية . وقد أثبتت المصادر الإسلامية صحة هذه المعلومات إلى حد كبير، بيد أنها أوضحت أن أقباط مصر كانوا يدفعون هذا القدر من الجزية طبقاً لطبقاتهم الثلاث : دنيا ووسطى وعليا ^(٦٢) ، وهنا ينبغي الإشارة إلى أن رؤية الحاج الأوروبي للمجتمع المصرى هذه قد بناها في أثناء زيارته ، في وقت كانت البلاد فيه تم بظروف سياسية واجتماعية غير مستقرة . إذ واكبت الفترة الانتقالية بين عزل ابن المدير المتعسف في جمعه للضرائب ، وقدم عامل الخراج الجديد محمد بن هلال ، وولایة ابن طولون الذي خفف الكثير منها ^(٦٣) ، غير أنه يبقى أن نجد تفسيراً لما ذكرته الرحلة

(٦١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٤ - ٢٧ ، ٢٣ : ياقوت الحموى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

(٦٢) أبو يوسف : كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٦٩ : الماوردي : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ١٢٨ .

(٦٣) ابن الداية : المصدر السابق ، ص ١١ ، ٣٣ ، ٦٤ : المقريزى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

فيما يختص بالوثنيين ، فهل المقصود بهم اليهود أم الروم الأرثوذكس أم المسلمين أنفسهم أو غيرهم ، أيا كان الأمر فالإسلام تعامل مع هذه القضية بوضوح ، إذ وفقاً لأحكام شرعية ، كان على جميع أهل الذمة مسيحيين ويهود بشتى طوائفهم دفع الجزية في حين يعفى المسلمون منها .

ثم واصل برنارد حديثه عن موضوع الجزية قائلاً : «وفي حالة ما إذا كان المسيحي من الطبقة الدنيا ، فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناً ، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاثة عشر ديناً فيودع السجن سواه ، أكان من أهل البلد أم كان مسيحياً أجنبياً ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرؤن إخراجه» . ولعل هذه العبارات تعكس عدم استيعاب صاحب الرحلة قضية الجزية ، فليس من المنطقى أن يدفع المسيحي المعدم مبلغ ثلاثة عشر ديناً وهو يشكل أضعف ما أورده الرحالة نفسه سالفاً، بيد أنه بالرجوع إلى العديد من الرحلات المدونة لأوربيين جاءوا لزيارة مصر تم العثور على ما قد يكون تفسيراً لما أورده برنارد ولم يستوعبه . فقد ذكر رحالة من ربى اليهود يدعى مشلم بن الراوى مناحم أوف فولتييرا الذي قدم إلى مصر في سياحة دينية عام ١٤٨١م. أن المسيحي الأوروبى كان عليه أن يدفع مبلغ ثلاثة عشر من الدوكات (Ducats) الذهبية إلى السلطات المصرية نظير دخوله الديار^(٦٤) ، وعليه يتضح أن مبلغ ثلاثة عشر ديناً التي أشار إليها برنارد بوجوب دفعها من قبل القبطي أو المسيحي الأجنبي كانت قاصرة على الزوار الأوروبيين دون أهل البلد ، وبذلك بدا هذا الحاج الأوروبي غير دقيق مرة أخرى فيما يتعلق بقضية الجزية حتى أنه تخيل أوضاعاً غير حقيقة .

ويرغم عدم إدراك برنارد لكثير من الأمور الدقيقة في المجتمع الإسلامي بالمناطق التي زارها ، مما جعله يحيد عن الصواب شيئاً ما في تقدير بعضها إلا أنه كان منصفاً في مواضع أخرى ، وهذا يتضح من المقارنة التي عقدها بين المجتمعين الإسلامي والمسيحي الأوروبي في عصره بعد احتكاكه بكل منهما . فهو يؤكد على أن المجتمع في مصر وفلسطين كان يتمتع بحالة من السلم الاجتماعي شملته بطانتيه الإسلامية والمسيحية ويقدم دليلاً على ذلك ، إذ يقول :

«إذا ما كنت في رحلة وأمتنع فيها جملأً أو حماراً يحمل أمتعتى القليلة ونفق الجمل أو الحمار فاضطررت إلى ترك كل متاعي بدون حارس عليه ، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى ، فإننى سأعود لأجد كل ممتلكاتى كما هي دون أن تمس بسوء ، وهذا هو السلام الذى يتمتعون به هناك». وفي المقابل يذكر الرحالة عن المجتمع الأوروبي «ولكن تجرى فى رومانيا [يقصد المنطقة

(٦٤) أوضحت ذات الرحلة أنه كان يتم إعفاء اليهود الزائرين من دفع رسوم الدخول إلى مصر ، وكان عليهم فقط الحصول على تصريح من الأمير بذلك ، راجع :

Meshullam Ben R. Menahem of Volterra , The etinerairy of R. Meshullam 1481 A. D, in Jewish Travellers, ed. by Elkan Nathan Adler , London 1930, pp. 159 - 178

الوسطى من إيطاليا] أشياء كثيرة سبعة كما يوجد بها رجال أشار : منهم من يسرق ومنهم من ينهب . أما هؤلاء الذين يتمنون الذهب إلى القدس بطرس لا يستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا في صحبة كبيرة و المسلحة بصورة جيدة ، ولكنه استثنى كل من مقاطعات لبارديا ويرتاني الواقعة ضمن ممتلكات شارل الأصلع ، فذكر أنهما تنعمان بالهدوء والسلام .

وهكذا فبعدتناول المادة التاريخية في رحلة برنارد في دراسة تاريخية تقديرية ، ثمة ملاحظات عن الرحلة ميزتها أيضاً فيما ورد من معلومات جغرافية ، إذ نلمس دقة صاحبها فيما ساقه عن الكثير منها غير أنه لم يكن موفقاً في ذكر بعضها الآخر . ومن المعلومات الجغرافية التي كان دقيقاً في إيرادها : إنه حدد موقع مينا ، الإسكندرية في شمالها ، كما أن النيل ^(٦٥) يشقها من أوسطها من جهة الجنوب حتى يصب في البحر المتوسط . وهذا الوصف يتفق مع وصف الإسكندرية زمن الرحلة إذ كانت تتصل بالنيل بواسطة شريدا التي كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصري في العصور الوسطى ^(٦٦) . وعندما كان برنارد في رحلته من عاصمة مصر ، (الفسطاط والعسكر معاً) إلى دمياط أشار إلى موقع ستيث Sitinuth ومعلا Maalla ، وبالتحقق من هذين الموقعين يتبيّن أن المقصود بالموقع الأول هو مدينة سمنود الواقعة على فرع دمياط ، وعلى بعد خمسة وأربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي منها ، أما الموقع الآخر فلعله محلة إنشاق ^(٦٧) - على الطريق المقابل المؤدي إلى شربين - نظراً لأنّه قريب النطق من مسمى « محلة » الذي يطلق على عدة مناطق في الدلتا ، كما أنها تقع على ذات الفرع فيما بين مدينة سمنود ودمياط ، الأمر الذي يدفع إلى الاعتقاد في أن الموقعين استخدما بصفتهما قاعدتين تتوقف فيها السفن النيلية زمن الرحلة .

تناول برنارد مدينة دمياط بوصف يغلب عليه الدقة أيضاً ، فذكر أن البحر يحيط بها من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من اليابس . وهذا يتفق مع الواقع الجغرافي ، إذ وصفت بكونها شبه جزيرة فب بينما هي تطل على البحر المتوسط شمالاً ، فالمياد العذبة لفرع دمياط وبحيرة تنسis « بحيرة المنزلة » يحدانها غرباً وشرقاً . وبذل فإن المنفذ

(٦٥) أطلق برنارد على النيل مسمى آخر ، وهو جيرون The Gihon . وفي الواقع ، عادة ما كان النيل يلفت أنظار الزائرين ومن أفاض في وصفه فلوكس فابري الذي أورد عددياً من أسمائه ، فبالإضافة إلى مسمى جيرون ذكر أسماء أخرى له ، مثل : الجننة Paradis ، چيناز Genes ، نيلون Nilcon ، علاوة على مسمى النيل الذي أطلقه المصريون عليه ، راجع :

Fabri, Félix , Op. Cit., pp. 607 - 608

(٦٦) محمد جمال الدين الشيال : طبغرافية الإسكندرية وتتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثاني ١٩٤٩ م. ، ص ٢٠٣ .

Bernard the Monk , Op. Cit , p. 141 , n2 .

الهوى الوحيد إليها من جهة الجنوب^(٦٨) ، وعندما قصد برنارد تانيس سجل مارآه من ضيق أرضها حتى أنه رأى أنها لاتسع إلا ما بها من كنائس ، كما سجل ظاهرة جغرافية أخرى وهي انبساط أرضها ، وهذه الحقائق أشار إليها الجغرافيون العرب المعاصرؤن حينما ذكروا أن «بحيرة تانيس بها مدن كالجزائر ولا طريق إليها إلا في السفن»^(٦٩) . كذلك جاء وضع ترتيب المدن التي مر بها برنارد صحيحاً من الناحية الجغرافية حيث مر بالفرما والعرش وغزة والرملة وعمواس ومنها إلى بيت المقدس، وفيها أوراد أسماء و مواقع بعض كنائسها بشكل صحيح ولاسيما كنائس السيدة مريم والقيامة وصهيون والقديس بطرس والجثمانية والصعود . وبعد انتهاء رحلته في فلسطين في طريق العودة نحوه يقول: «ظللنا نبحر لمدة ستة أيام بصعوبة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواطية لاتجاه السفينة». وهذه الظاهرة الجغرافية تتفق مع الواقع إذ إن اتجاه الرياح في البحر المتوسط غربية معاكسة للريح التجارية الشرقية كما هو معروف ، ومن ثم كانت تعرقل سير السفن القادمة من الشرق . وأخيراً ، نحوه يسجل ظاهرة ارتفاع المياه وانحسارها حول جبل القديس ميخائيل صاحب المقبرتين عند بحر الشمال فيما يعرف أصطلاحاً بظاهرة «المد والجزر» في الكتب الجغرافية.

أما فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية غير الدقيقة لدى برنارد أو التي جاء به فيها الصواب فهي عديدة أيضاً، ومن ذلك عدم قدرته على تقدير المسافات، فكانت ملاحظة شائعة إذ حدد المسافة بين جبل جرجانوس شرق روما ومينا ، باري بمائة وخمسين ميلاً في حين إنها في الواقع تزيد عن أربعين ميل الخطي المباشر وركوب البحر، وعندما ارتحل إلى فلسطين قدر المسافة من القدس إلى بيت لحم بمسافة ميل واحد ، في حين إنها تقارب ستة أميال ، كذلك قدر المسافة بين بيت لحم ودير الكهنة المقدسين في رامة الخليل بمسافة ميل واحد، في حين إنها تزيد عن الاثنين عشرة ميلاً. وفي معرض الحديث عن الأماكن الدينية لم يهتم بذكر أسماء بعض الكنائس وحدد موقع بعضها خطأً كما هو الحال بالنسبة لكنيسة القديس ستي芬، حيث حدد موقعها إلى الشرق من كنيسة صهيون الواقعة في الجنوب في حين إنها تقع إلى الشمال من المدينة المقدسة. كما ذكر أن هناك كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا فوق جبل الزيتون في حين إنه ليس بالموقع كنيسة تحمل المسماي المذكور وأخيراً نحوه حدد موقع بلاد بابل التي ذكر اسم ملكها نبوخذ نصر Nebuchad nezzar في جنوب القدس وقت تواجده بها وأضاف أنها مسكونة بالأفاعي والوحش البرية، ومن ثم أخفق في تحديد موقعها ، كما أساء وصفها ، إذ إن العراق كانت تتمتع بفترة من الرخاء.

(٦٨) لمعرفة المزيد عن موقع دمياط الاستراتيجي ، راجع : محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة ، حملة چان دی برین على مصر (١٢١٨ - ١٢٢١ م / ٦١٥ - ٦١٨ هـ) الإسكندرية ١٩٨٥ ، ص ١٨٦ - ١٨٩.

(٦٩) ابن حوقل ، صورة الأرض ، الطبعة الثامنة ، لبنان ١٩٣٩ ، ١٩٣٨ م ، ص ١٥٦؛ الأصطخرى: مسالك المالك ، لبنان ١٩٢٧ م ، ص ٥٢.

العظيم في هذا الوقت . ويبعد أنه كان متأثراً بما ورد في العهد القديم بهذا الشأن^(٧٠) . غير أنه يمكن التماس العذر له في تلك الزلات بسبب عدم نصوح الحج المسيحي حتى وقت زيارة الحاج الأوروبي . كما أن سابقيه في التدوين لرحلات الحج انزلقوا أصلاً في كثير من الأخطاء ، فاستعان اللاحقون بمدوناتهم تلك دليلاً مرشدًا.

وفي النهاية ، فقد يمكن الخروج من دراسة رحلة برنارد ببعض النتائج الطيبة ، فمن الواضح أن رحلات الحج الأوروبي والتي كانت رحلة برنارد ورفيقه من أهمها قد تركت أثراً في دفع حركة الحج المسيحي الأوروبي الغربي إلى الأرض المقدسة بشكل أو باخر ، إذ إن أربعين حاجاً من النورمان العائدين من الأرض المقدسة هبطوا إلى مينا . بارى بعد بضع سنوات من رحلة برنارد ومنها شقوا طريقهم إلى جبل جرجانوس حيث مزار كتبسة القديس ميخائيل^(٧١) . ومن ثم فلهذه الحادثة دلالتها إذ أصبح من الملاحظ أن الحجاج الأوروبيين في شمال القارة استفادوا من تجارب الحجاج السابقين عليهم الذين تركوا مدونات واعتبرت دليلاً مرشداً لمن يسلك طريق الحج إلى الأرض المقدسة . وما يؤكد هذه الملاحظة اتباعهم نفس الطريق حيث عرجوا في طريق عودتهم على كل من بارى ومزار القديس ميخائيل . كذلك تعرى برنارد الدقة بشكل أوضح عن سابقيه في رحلة الحج إلى القدس ، ونضرب مثلاً هنا بما ورد برحلة والبيالد عند سرده للأحداث وتناوله للأماكن . واشتغلت رحلة برنارد أيضاً على معلومات وموقع لم ترد عند الكثير من الرحالة الذين كانت رحلاتهم لاحقة لرحلته .

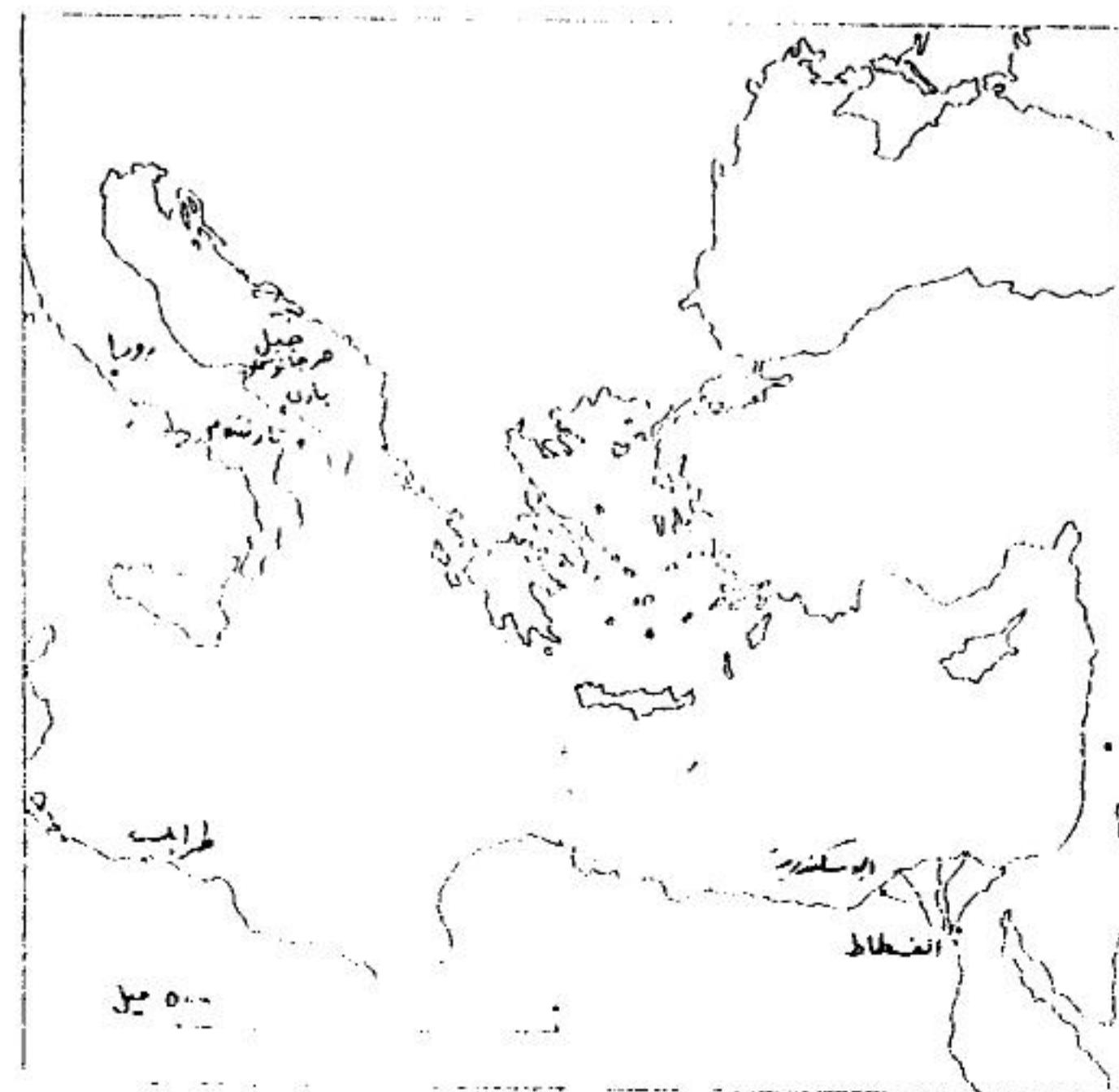
من ناحية أخرى وقعت أحداث رحلة برنارد ورفيقه إلى الشرق الإسلامي لتعكس بعض أوضاعه السياسية والحضارية ، بعين أوربية في وقت كان المد فيه لصالح المسلمين حتى أن أوروبا غدت مكشوفة لهم خاصة عند أطرافها الجنوبية والغربية ، في حين كانت الدولة الإسلامية ذات الهمبة والقوة عالمًا يغلب عليه الإبهام والغموض بالنسبة للأوروبيين موعديه فالقدوم في زيارة إلى بلاد المسلمين قد تقوم بتوضيع بعض جوانب هذا العالم ، ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى أن أفراد الرحلة انطلقاً منذ البداية من سقر البابوية في روما ، التي ظلت تنتظر تقريراً بها يقدمه برنارد فكان بثابة نص هذه الرحلة ، الموجزة في عباراتها ، والغنية بمعلوماتها والفريدة في زمنها ، ومع ذلك يجب الالتزام بالحذر من بعض المادة التي تحتويها .

(٧٠) العهد القديم : أشعيا . ١٤ : ٢٩ .

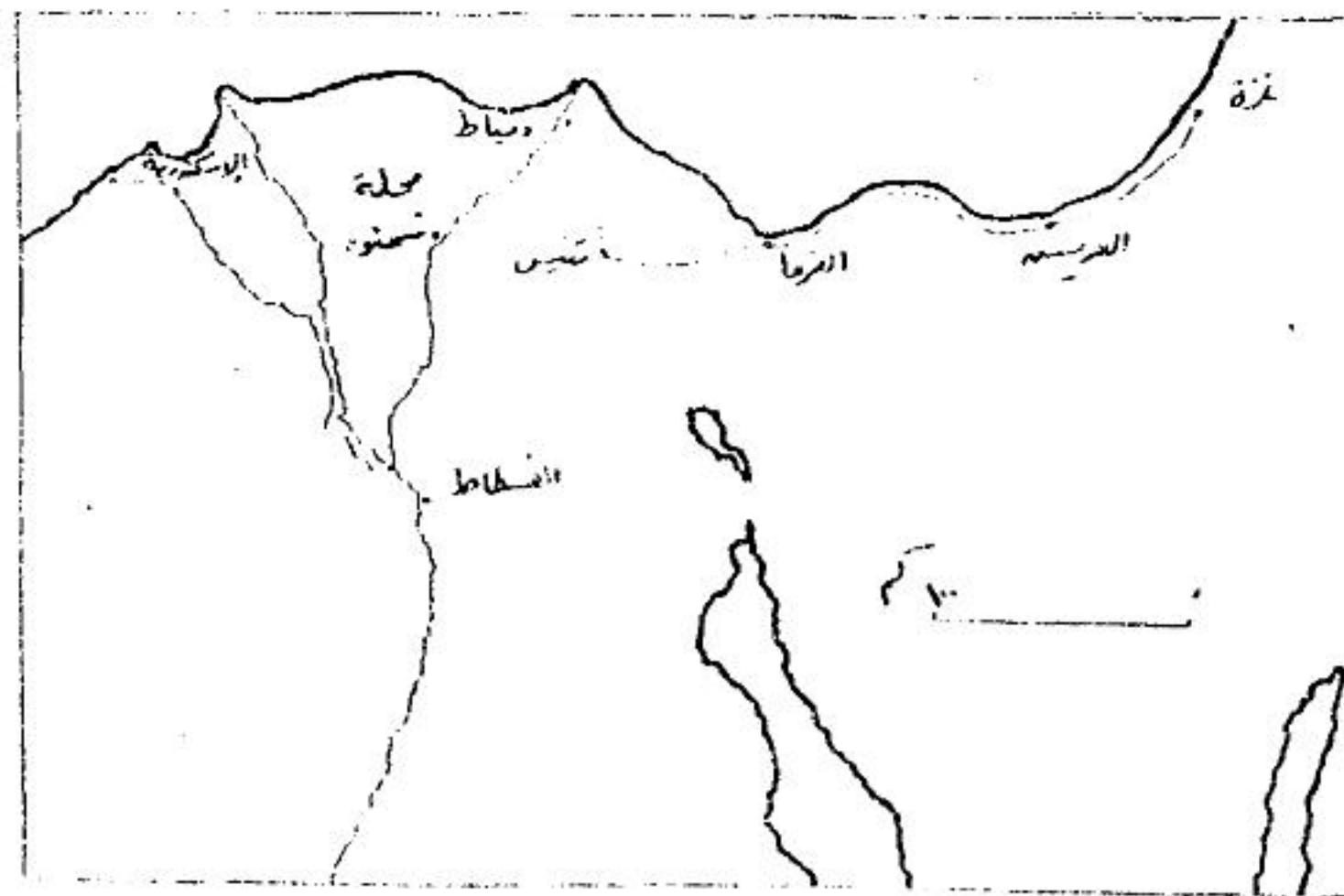
(٧١) محمد محمد مرسي الشبيخ : الملك الجرماني في أوروبا في العصور الوسطى ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٣٠٨ ، راجع أيضًا :

Christie Neil , OpCil. , p. 216.

خط سير رحلة برنارد الحكيم في مراحلها المختلفة



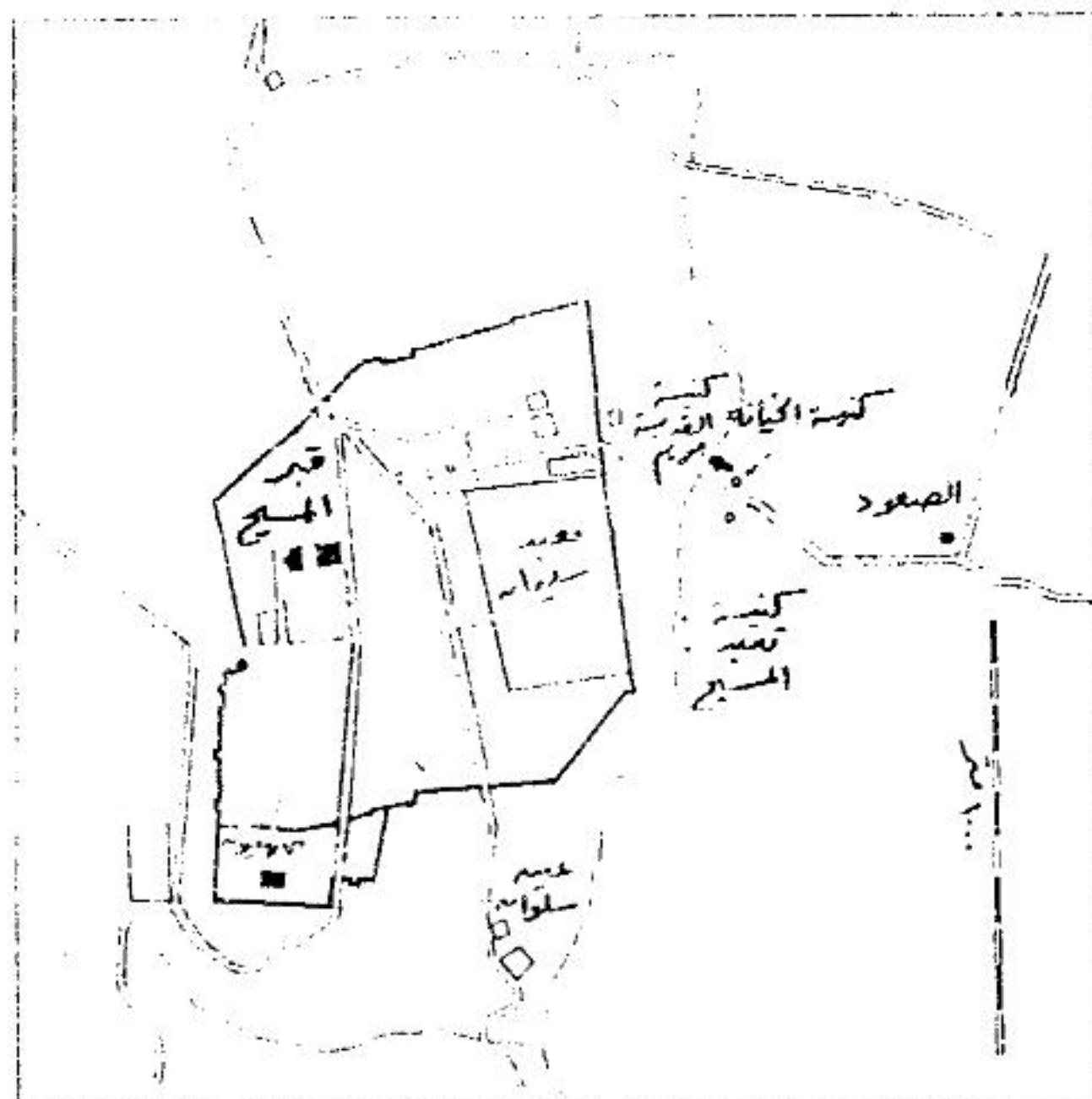
خريطة رقم (١) : خروج الرحلة من إيطاليا حتى وصولها إلى الإسكندرية .



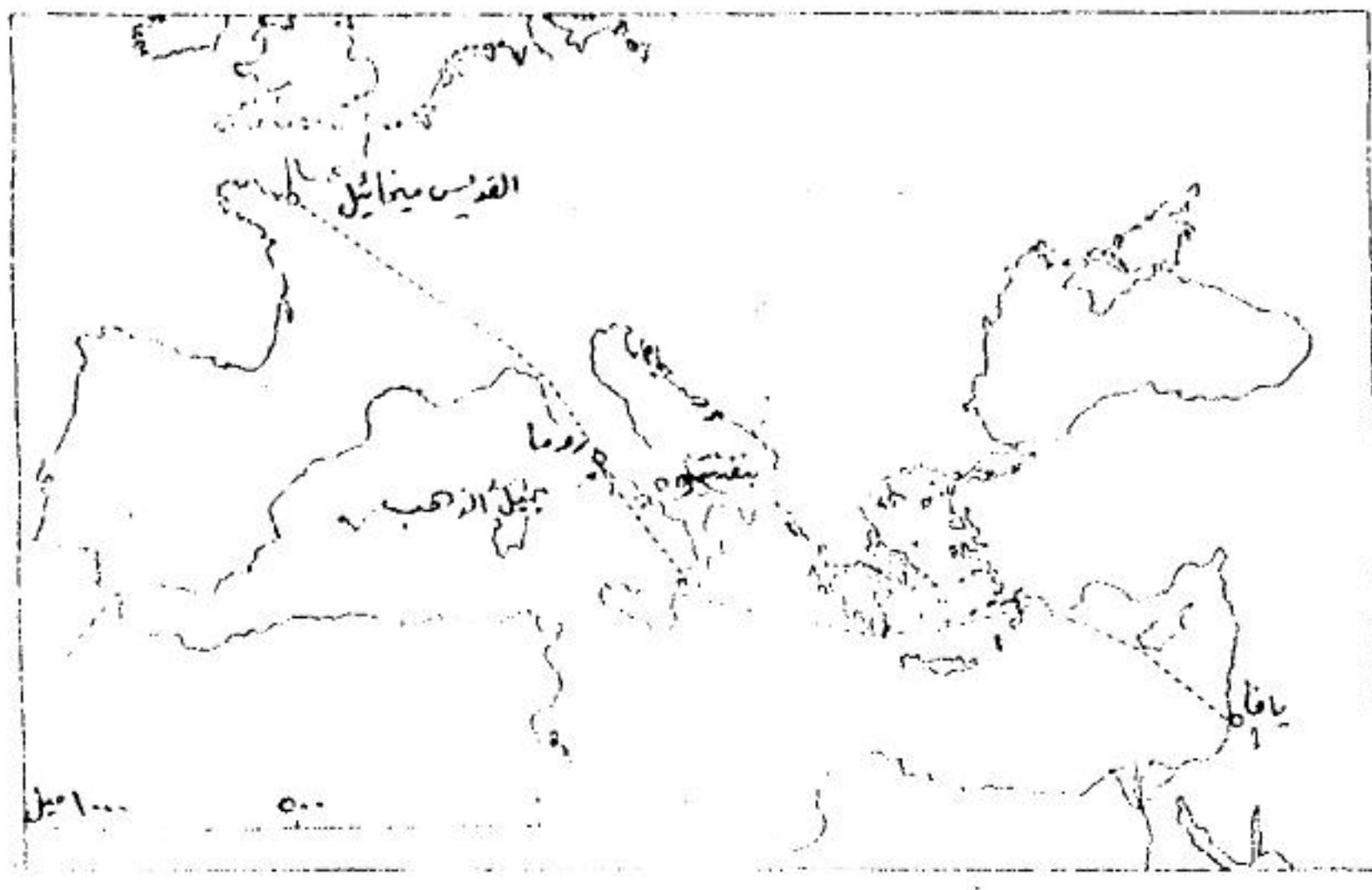
خريطة رقم (٢) : خط السير في مصر من الإسكندرية حتى غزة .



خريطة رقم (٣) : الرحلة في فلسطين .



خريطة رقم (٤) : معالم القدس الدينية التي شملتها الرحلة .



خريطة رقم (٥) : رحلة العودة إلى الغرب الأوروبي

المarrant نقلًا عن :

Wilkinson, J., Op. Cit., maps nos. 43 - 47 .

ملحوظات على النص :

حرص الباحث على تبييز العبارات التي أضافها الناشر جون ولكنsson من مدونات أخرى، لم يكن السابقون عليه قد استخدموها ، بوضعها بين حاصلتين رمزاً للاقتباس، كما حرض على إيراد التفسيرات التي أطلقها نفس الناشر في ثنايا النص ، وحددها بوضعها بين الأقواس علما بأن التفسيرات لم يمكن تحديدها إلا بعد مضاهاة النص الذي ساقه الناشر بالنصوص الأخرى ، أما الهوامش التي وضعها ، فقد ميّزت بالحافظ على ترقيمها العددى المسلسل ، وما دونها الواردة لدى الناشر أو برى ستيفارت فقد حملت علامة * هذا وقد استخدمت الأقواس المركبة من قبل الناشرين معًا لاضافة ما رأيا ضرورة ضمها للنص .

ترجمة للنص :

رحلة برنارد الحكيم * (ورثيقية، ٨٧٠ م)^(١)

من هنا يبدأ وصف رحلة ثلاثة من الرهبان وهم : برنارد ورفيقيه إلى الأماكن المقدسة وبابلion Babylon . وشملت الرحلة وصفاً لمدينة بيت المقدس وما يحيط بها من بقاع رأها برنارد الحكيم أثناء ذهابه إلى المدينة أو عودته منها

١ - في عام تسعين وسبعين من تاريخ تجسيد السيد المسيح ^(٢) ، «في عام ٨٧٠ م.»

^(٢) تثبتنا من أحداث القيام بالرحلة ووصفها راجين من الله أن يوفقنا في رؤية أرض الأنبياء ، في بيت المقدس إذ اجتمعت أنا برنارد مع اثنين من الإخوة في تقوى الله ومحبته ، وكان أحدهما يدعى ثيودمند من دير فنسنت المبارك في مقاطعة بنفنتبر أما الآخر فهو أسباني Spaniard يدعى ستيفن ^(٣) «وكانت فرنسا هي مسقط رأسه» ^(٤) ويعجرد حصولنا على شرف المشول بين يدي نيكolas ^(٥) ببابا المدينة (روما) فزنا بما تمنينا حيث سمع لنا بأن نبدأ رحلتنا تحفاً مباركته ومساعدته .

* التزم الناشر بنص طبعة توبلر

Tobler , T., Molinier , A., (ed s.). Itinera Hierosolymitana , 2 vols., Publications de la société de l' Orient Latin, Série Géographique , 1,2 Geneva 1879 - 80.

(١) إن أبكر مخطوط للرحلة الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر يحمل نفس العنوان ، وهو محفوظ في جامعة لينكولن Lincoln ، في أكسفورد Oxford . كان يسلط على الكاتب اسم برنارد الحكيم Bernard The Wise .

** ورود اسم البابا نيكolas في ثنایا النص يكفي دليلاً على أن رحلة الحج قد تمت قبل مائة عام من هذا التاريخ ، ويتحقق ذلك في الفقرة رقم ١ ، كما يتضح في الفقرة رقم ٢٤ من النص .

(٢) إن شرح بعض النقاط من خلال الحراشى سيجعل النص يوضح أن برنارد كان يتحدث عن أناس وأحداث تحمل تاريخاً سابقاً لعام ٨٧٠ م ، وهذا العام كان واضحاً بالتأكيد في المخطوط ، إلا أن بعض المؤلفات أرجعت التاريخ إلى عام ٩٧٠ م . وذلك هو التاريخ الذي نقرأه في كل المخطوطات . وكان هناك مخطوطة يرجع تاريخه إلى عام ٨٧٠ م. ضمن مجموعة كوتونيان Cottonian في المتحف البريطاني ، لكنه فقد في منتصف القرن التاسع عشر . وفقاً لما ذكره ت. رايت في كتاب الرحالة الأوائل في فلسطين ، لندن ١٨٤٨ ، ص ١٦ .

Wright., T., Early Travels in Palestine

وقد ورد في نص برنارد ما يؤكد على أنه بدأ رحلته قبل وفاة البابا نيكolas في عام ٨٦٧ .

(٣) إن هذه العبارة ساقطة من مخطوط ريمس Rheims .

(٤) إن هذه العبارة مسجلة في مخطوط ريمس .

(٥) اعتلى نيكolas الأول Nicholas منصب الباباوية من عام ٨٦٧/٨٥٦ م .

٢ - وب مجرد أن تكنا من الخروج من هناك وصلنا إلى جبل جرجانوس ميخائيل على بعد رمية حجر منه ، ومن فوقها على سفح الجبل يبدو ١ ويقال أن كبير الملائكة هو نفسه الذي خص هذه الكنيسة لخدمة الله . الشمال وهي تسع لستين رجلاً وفي الطرف الشرقي داخل الكنيسة يو المذبح في يوجد بالجانب الجنوبي حيث تقدم فوقه الأضاحي ولا يتم وضع وهناك آنية مخصصة لوضع الهبات معلقة قبل الوصول لهذا المذبح ، عدد من المذايغ الأخرى . وكان رئيس دير الرهبان يدعى بنيجنا توس Benignatus وكان يشرف على عدد كبير من الإخوة .

٣ - بعد مغادرة جبل جرجانوس بمسافة مائة وخمسين ميلاً وصلنا لمدينة للمسلمين ^(٦) تدعى باري وكانت تقع فيما سبق تحت سيطرة أهل بنفتبيو وهذه المدينة - الواقعة على ارتفاع من البحر - محصنة بحائطين سميكين في الجهة الجنوبيّة ، أما من جهة الشمال فهي تواجه البحر . وبعد أن ناشردنا حاكم المدينة الذي يدعى سلطان، تم إمدادنا بكافة الترتيبات اللازمة لرحلتنا تمثل في خطابين ، يتضمنان وصفاً لأشخاصنا وأصولنا لحاكم الإسكندرية وبابلion إذ أن هذين الرجلين خضعا تحت سلطة أمير المؤمنين Amar mominus ^(٧) الذي يحكم كل المسلمين الذين يسكنون ببغداد وأكسنارى ^(٨) اللتين تقعان فيما وراء بيت المقدس .

٤ - تركنا مدينة باري متوجهين جنوباً لمسافة تسعين ميلاً حيث وصلنا لمينا ، مدينة تدعى تارنتوم ، وهناك وجدنا ستة من السفن على ظهرها تسعة آلاف من أسرى مسيحي بنفتبيو وقد حملت السفينتان الأوليان بثلاثة آلاف من الأسرى في طريقها إلى إفريقيا ، أما السفينتان التاليتان فتم تحويلها بنفس الطريقة بثلاثة آلاف أسير إلى طرابلس .

٥ - أما نحن فقد تم وضعنا أخيراً في القافلة الثالثة من السفن مع بقية الأسرى في اتجاهنا إلى مينا ، الإسكندرية حيث استغرقت الرحلة ثلاثة أيام . وعندما علم قبطان السفينة -

(٦) ضرب الإمبراطور لويس الثاني Louis II حصاراً حول مدينة باري Bari في عام ٩٦٩م. ثم استولى عليها من المسلمين عام ١٠٧١م. وبعد وفاته في عام ١٠٧٥م. قامت قوات الإمبراطورية البيزنطية بالاستيلاء عليها . انظر: C. Diehl and G. Marçais , Le Monde Oriental de 395 à 1081 (Histoire du Moyen Age III) Paris 1936 , p. 440

(٧) أحد الألقاب التي كان يلقب بها الخليفة هو "Prince of the Faithful" أي «أمير المؤمنين» ، ورمان شك أن هذا اللقب هو المشار إليه في هذا الموضع . وأسماء الخلفاء الذين عاصروا فترة رحلة برنارد هم : المعتز (٨٦٩ - ٨٨٦م.) ، المهتمد (٨٧٠ - ٨٩٢م.) .

(٨) لم يحدث أن أقام الخلفاء في كل من مدineti ببغداد وبسالما ، في وقت واحد . وبحلول عام ١٠٣٦م. ، أصبحت ببغداد مدمرة بالقدر الذي جعل الخليفة المعتصم ينتقل إلى سالما . وما بثت أن استعادت المدينة كيانها بأن اتخذها الخليفة المعتصم عاصمة له بعد خلافته في عام ١٠٩٢م.

فأ - برغبتنا في الهبوط إلى الشاطئ ، منعنا من ذلك ، ولكن حين
مات) ^(٩) سُنحت أمامنا الفرصة للتزول إلى البر بعد أن سمح لنا

تنا ، تمكننا من الوصول إلى الإسكندرية ومقابلة حاكمها ، فسلمناه
لكنه لم يحرك ساكناً حياله برغم من أنه لم ينكر محتواه ، وأمام
هذا الموقف قام كل منا باعطائه ٣٠٠ (ثلاثين) ديناراً ^(١٠) أخذها لنفسه ، وحينئذ قام بتحرير
خطابات لنا لتقديمها إلى حاكم بابلدون . وعادة هؤلاء الناس حساب وزن كل ما يمكن وزنه فضلاً
عن أنهم عادلوا الستة صولدات (شلنات) ^(١١) والستة دينارات من عملتنا بثلاثة صولدات
وثلاثة دينارات بالنسبة لهم .

إن الإسكندرية هذه تقع على البحر وبها قام القديس مرقس بالدعوة للإنجيل وأصبح أسفاؤها
فيها ويقع دير القديس مرقس خلف البوابة الشرقية حيث تم دفنه فيما قبل في هذه الكنيسة التي
تضم العديد من الرهبان . غير أن البناة الذين جاؤوا عن طريق البحر تمكنوا من السطوة على
جنته ونقلها إلى جزيرتهم في غفلة من حراسها . أما فيما وراء البوابة الغربية فيوجد دير يحمل
اسم الأربعين قديساً حيث به ما يشبه مركزاً للرهبان . ويقع المينا إلى شمال المدينة كما يشقها
جيحون (النيل) من وسطها من جهة الجنوب . ذلك النهر الذي يروى مصر ليصب في البحر عند
المينا سالف الذكر .

٧ - ومن هنا أبحرنا في اتجاه الجنوب إلى مدينة بابلدون Babylonia في مصر التي
وصلناها بعد ستة أيام ، تلك المدينة كان يحكمها فرعون يوماً وفي ظل حكمه قام يوسف ببناء
مخازن الغلال السبعة التي مازالت قائمة حتى الآن . وب مجرد أن وصلنا إلى المدينة قادنا حراسها
إلى الحاكم الذي كان يدعوه المسلمين باسم Adelacham ^(١٢) ، الذي سألنا عن هدف رحلتنا
وعن الأمراء الذين نحمل خطابات منهم ولذا أربناه خطابات كل من سلطان المذكور سلفاً وحاكم

(٩) إنها عملة اليورى Aurei ، أو العملات الذهبية . إن القيمة العالية للعملة الذهبية جعلت الإمبراطورية
الإسلامية رائدة للاقتصاد العالمي ، وأى زائر أوروبي خلال فترة الحكم العباسى ، كان معرضًا لخوض تجربة
مشابهة لتلك التي خاضها برنارد عندما قام بتحويل العملات التي جلبها معه .

(١٠) كان الدينار يصنع من الفضة .

(١١) عملة الصولدى كانت ذهبية .

(١٢) يبدو هذا المسمى شبّه بـ «عبد الحكيم» . لكن الأمير في هذا الموضع هو أحمد بن طولون ، الذي
استقل عن الخلافة العباسية عام ٨٦٨م . و مد حكمه إلى سوريا . فربما كان لرسائله الأثر الطيب على تلك المناطق
خلال زيارة برنارد لها .

الإسكندرية ، ولكنها لم تنفعنا بشيء ، وعليه قام بإيداعنا السجن . وبعد ستة أيام خطر ببالنا يعون من الله أن يعطي كل منا هذا الحكم مبلغ ثلاثة عشر ديناراً كما حدث في المرة السابقة . وحينئذ قام الحكم بمنعنا خطابات لم يجرؤ أحد من شاهدها في أي مكان أو مدينة على أن يبتهننا مرة أخرى نظراً لأنه كان الرجل الثاني في إمبراطورية أمير المؤمنين سالف الذكر . غير أنه حينما كنا ندخل أياماً من المدن التي سبلي ذكرها لم يصرح لنا بالخروج منها إلا بعد الحصول على تصريح مكتوب على إحدى الرقائق مقابل دينار أو إثنين .

وهذا وفي هذه المدينة يوجد البطريرك السيد ميخائيل (Lord Michael^{١٢}) وهو الذي يتصرف ببركة الله في شئون الأساقفة والرهبان واليسوعيين في شتى أرجاء مصر، وفيها كان القانون الوثني يفرض ضريبة سنوية (ضريبة رؤوس - Poll tax) يدفعها المسيحيون إلى هذا الأمير سالف الذكر مقابل أن يبقوا في أمان وحرية ، وتقدر قيمة هذه الضريبة بواحدة أو اثنتين أو ثلاث من القطع الذهبية (جنيهات) ، وفي حالة ما إذا كان المسيحي من الطبقة الدنيا (الأفراد أكثر فقرًا) فكان عليه أن يدفع ثلاثة عشر ديناراً ، أما إذا لم يتمكن من دفع هذه الثلاث عشر ديناراً فيرسل إلى السجن سواه ، أكان من أهل البلاد أم كان مسيحياً أجنبياً . ويظل قابعاً فيه حتى يرسل له الله ملاكه ليقبض روحه أو أن يتولى مسيحيون خيرون آخرون أخراجه .

٨ - وظلت الأمور على هذه التوترة إلى أن عدنا ثانية في نهر النيل في رحلة استغرقت ثلاثة أيام وصلنا بعدها إلى مدينة سيتينيث Sitinith ، ثم تقدمنا من سيتينيث إلى معالا Maalla ومنها عرجنا على دمياط Damias حيث يحيط بها البحر من جهة الشمال ونهر النيل من بقية الجوانب عدا قطعة قاحلة ضيقة من البابس . ومن هناك أبحرنا إلى مدينة تنسis حيث يوجد مسيحيون دفعهم تدينهم الشديد إلى أن ينزعوا إلى حسن الضيافة والكرم الشديد . وهذه المدينة ليس لها أية أرض عدا تلك التي تقوم عليها الكنائس وهذا يوضع أرض تنس المنبسطة التي ترقد فيها جثث أشخاص تم قتلهم في عهد موسى وتبدو أماكن دفن هذه الجثث وكأنها ثلاثة حوانط .

٩ - ومن تنسis وصلنا إلى مدينة الفرما Farma ، حيث قال الملاك ليوسف بأن يفر مع الطفل وأمه (ابنه والأم) ، وقد تم تشييد كنيسة في ذات الموقع تخليداً لذكرى مريم المباركة Blessed Mary . وفي هذه المدينة ، هناك العديد من الجمال التي يقوم أهالي المنطقة بتاجيرها للغرباء ، لحمل أمتعتهم عبر الصحراء ، حيث تستغرق الرحلة ستة أيام . وهكذا فالدخول

(١٢) ارتقى السيد ميخائيل منصب البطريرك منذ عام ١٨٥٩م. وحتى عام ١٨٧١م. وكان قبل ذلك أسقفاً للإسكندرية ، كانت الفسطاط هي محل إقامته ، التي تعد عاصمة لصر منذ سقوطها بيد المسلمين عام ٦٤١م. وحتى تاريخ تأسيس القاهرة عام ١٩٦٩م .

لهذه الصحراء، يبدأ من مدينة الغرما تلك ، والصحراء هو الاسم المناسب لها : فهي لا تنتفع أعشاباً ولاية محاصيل مزروعة ، اللهم إلا أشجار التخييل ، إلا إنها ببعضه تماماً ، مثلما هو الحال في البلاد التي يقطنها الجليد . على طول هذا الطريق ، يوجد نزلان للمسافرين ، واحد منها يدعى البارا والأخر يدعى البشارا^(١٤) ، ويستطيع المسافرون شراء ما يحتاجون إليه من المعال التي يملكتها المسيحيون والوثنيون هناك ، لكن لا تنتفع هذه الأرض شيئاً على الإطلاق سوى ما سبق وأن ذكرناه . بعد نزل البشارا وحتى مدينة غزة ، والتي كانت مسقط رأس شمشون ، تبدأ الأرض الخصبة الفنية بكل أنواع الطيبات .

١٠ - وبعد خروجنا من هذا المكان ، توجهنا إلى العريش ومنها وصلنا إلى مدينة الرملة ، والتي يوجد بجوارها الدير الذي يرقد فيه الشهيد جورج المبارك Blessed George the Martyr . وانطلقنا من الرملة إلى قرية عمواس Emmaus ، ومن قرية عمواس وصلنا إلى القدس ، المدينة المقدسة ، وتم استقبالنا في بيت ضيافة الامبراطور الأմجد تشارلز ، حيث يحصل كل من يتحدث اللسان الروماني Roman وكل من يبغى التعبد على كرم الضيافة هناك . وبالقرب من بيت الضيافة هذا توجد كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى السيدة مريم ، وتضم هذه الكنيسة مكتبة فخمة يرعاها هذا الإمبراطور ، كما تحتوى على إثنى عشرة مكاناً للإقامة وحقول وكرمات وستان في وادي چوزافات The Valley of Jehoshaphat . وقبالة بيت الضيافة . يوجد سوق ، وكان على كل من له تجارة هناك أن يدفع ضريبة سنوية قيمتها جنيهان .

١١ - وداخل حدود هذه المدينة ، توجد أربع كنائس ذات أهمية خاصة . ونجد جدران الكنائس الأربع متلاصقة مع بعضها البعض . وهناك كنيسة منها تقع جهة الشرق ، والمدينة تحتوى على جبل كلثاري وعلى المكان الذي تم فيه العثور على صليب الرب . ويطلق على هذه الكنيسة باسم كنيسة قسطنطين البازيليكية The Basilica of Constantine . وهناك كنيسة أخرى إلى الجنوب وثالثة إلى الغرب : وهذه الكنيسة يوجد في وسطها ضريح الرب The Lord's Sepulchre . حول هذا الضريح ، هناك تسعة أعمدة ، والجدران التي تفصل تلك الأعمدة بنيت من أفضل أنواع الأحجار . توجد أربعة من هذه الأعمدة التسعة أمام المقبرة الحالية ، والأعمدة (التي نجد في وسطها الحوانه) تحبطة بالحجر الذي قام الملك بدرجته بعيداً ، وجلس عليه بعد صمود الرب . وإننى أرى أنه ليس من الضروري الخوض أكثر من ذلك في موضوع هذه الكنائس حيث أن بيده Bede يصفها وصفاً وافياً في تاريخه^(١٥) ومع ذلك فهناك

(١٤) تلك الأسماء لا تتطابق مع الموضع المعروفة فـى الطريق العاشر . فـى ما تحمل معانى : البر والبكرة The Well أو البر The Pulley أو البر The Land والبحر The Sea . انظر :

Tobler's discussion, Dictionnaire de la Terre- Sainte , p. 405 , and , T. wright, op. cit., p. 25, no. 2

(١٥) إن بيده Bede بعيد ، فـى حقيقة الأمر ، معلومات سبق وأن أمدنا بها أدمنون الأول Adomnan I 2/8 . وايكيروس Eucherius

ما يجب ذكره هنا وهو أنه في يوم السبت المقدس Holy Saturday أو عشية عيد الفصح Easter eve^(١٦) ، يبدأ القدس مبكراً في الكنيسة وبعد الانتهاه منه يتم الترتيل بعبارة «وارحناه» Kyrie eleison حتى يأتي الملك فيقوم بإضرام النار في القناديل التي تتدلى من أعلى الضريح (السابق ذكره) . ويعطى البطريرك قبساً من الضوء إلى الأساقفة وإلى باقي الناس والذين يمكن لكل واحد منهم أن يقوم بياضنة موضعه من الوقوف . وكان يطلق على هذا البطريرك إسم ثيودوسيوس^(١٧) الذي كان قد حمله المسيحيون من ديرة الذي يقع على بعد ١٥ ميلاً من القدس وجعلوه بطريركاً على كل المسيحيين سفي أرض الميعاد Promised Land بفضل ورعه وتقواه . وبين الكنائس الأربع السابقة توجد ساحة غير مسقوفة تلمع جدرانها بالذهب وتغطي أرضيتها أنفس الأحجار . وفي وسط الساحة يوجد مكان فسيح تحدده أربعة سلاسل تتدلى^(١٨) من الكنائس الأربع السابقة ويقال أن هذا المكان صرة العالم .

١٢ - وبالإضافة إلى ذلك توجد في المدينة أيضاً كنيسة أخرى إلى الجنوب فوق جبل صهيون تسمى كنيسة القديس سمعان ، حيث غسل فيها الرب أقدام حواريه ، وهنا يتندل تاج الرب الشوكى . وقد ذكر في المدونات السابقة أن ذات المكان شهد وفاة السيدة مريم . وبالقرب من الكنيسة إلى الشرق توجد كنيسة أخرى تم تشييدها إحياءً لذكرى القديس ستيفن في نفس المكان الذي يقال أنه رجم فيه . وإلى الشرق أكثر من ذلك توجد كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى بطرس المبارك في المكان الذي أظهر فيه نكرانه للرب . وإلى الشمال يقع معبد سليمان الذي يضم مسجداً للمسلمين Saracens . وإلى الجنوب توجد بوابات حديدية قام ملوك الرب بإخراج بطرس من سجنها من خلالها ، وفي مرحلة تالية تم إغلاقها .

١٣ - وفي أثناء مضينا قدماً من القدس هبطنا إلى وادي جوزافات الذي يبعد ميلاً عن المدينة وهو يحتوى على بستان (قرية) الجثمانية Garden of Gethsemame إلى جانب مسقط رأس السيدة مريم حيث توجد كنيسة ضخمة إحياءً لذكرها . وفي البستان (القرية) توجد أيضاً كنيسة السيدة مريم الدائرية التي يوجد بها ضريحها الذي يتحمل سقوط الأمطار بصعوبة لأنه غير مسقوف . وفي نفس المكان توجد كنيسة تحتوى على الأربع موائد الدائرية نعشاء ، الرب

(١٦) هذا هو أول وصف للإحتفال بالنار المقدسة Holy Fire ، لكن سبق ذكره قبل قرن في Life of Theodore the Sabaite ، انظر : J., Phocylides, Nea Sion (1911), p. 230 , See also Revue Biblique, Paris, RB 1911,421

(١٧) تولى منصب بطريركاً منذ عام ٨٦٤ مـ حتى تقربياً عام ٨٨٠ مـ.

(١٨) يعبّ أن تقرأ كلمة كاتونناس Catenas الموجودة في النص اللاتيني على إنها كلمة كاتوناريوم Catenarium .

، وفي موقع الكنيسة وقعت حادثة الخيانة ضد الرب . وفي وادي چوزافات توجد أيضاً كنيسة أخرى شيدت إحياءً لذكرى القديس ليوفيتيس St. Leontius ويقال أنه فيها سياتي الرب ليوم الحساب .

١٤ - ومن هذا المكان تقدمنا إلى جبل الزيتون الذي يقع على المنحدر الذي يبدو منه مكان صلاة الرب لأبيه ، وعلى جانب الجبل يتضمن المكان الذي أتى فيه المفترون بالمرأة التي عرضوها على الرب بتهمة الزنا : ويحتوي هذا المكان على كنيسة تم تشييدها إحياءً لذكرى القديس يوحنا St. John كما أن الكتابة التي سبق أن كتبها الرب على الأرض تم حفظها على الرخام في هذه الكنيسة .

١٥ - وعلى قمة هذا الجبل الذي يذكر كثيراً ويبعد عن وادي جوزافات ميل واحد ، حيث يقع مكان صعود الرب إلى الأب ، فيوجد به كنيسة دائرة غير مسقوفة ، ويوجد هناك مذبح تحت السماء المكشوفة في وسط الكنيسة أي في نفس مكان صعود الرب ، وعند هذا المذبح تقام الاحتفالات بالقدس .

١٦ - ومن هذا المكان عبرنا إلى بيشانى التي تقع إلى الجنوب أثنا ، نزولك من الجبل على بعد ميل واحد من جبل الزيتون ، وهنا يوجد دير يظهر في كنيسته ضريح ليعازر . وبجانب الضريح إلى الشمال توجد البركة التي اغتسل فيها ليعازر بأمر الرب بعد مبعثه عقب صلبه ، ويقال أنه بعد ذلك صار أسقفاً في إيفيانى Ephesus لأربعين عاماً . وأثنا ، هبوطك من جبل الزيتون ، تجد على الجانب الغربي منه كتلة من الرخام كان قد امتنع الرب منها جعشاً وتحصر كل تلك المناطق إلى الجنوب ، وفي وادي جوزافات ، بركة سلوان .

١٧ - علاوة على ذلك ، فعندما رحلنا عن القدس وأثنا ، اتجاهنا إلى بيت لحم الذي يقع على بعد ميل واحد (ستة أميال) من موطن ميلاد الرب ، شاهدنا الحقل الذي كان حقوقه Habakkuk يعمل به حين أمره ملاك الرب بأن يحمل الطعام إلى دنيال Daniel في بابلدون «تقع بابليون ، حيث تولى نبوخذنصر الحكم ، إلى الجنوب ولكن تسكنها الآن الآفاسى والوحش البرية» وفي بيت لحم ، توجد كنيسة عظيمة جداً شيدت إحياءً لذكرى السيدة مريم ، يوجد في وسطها سرداً تحت حجرة . والطريق إلى داخله يقع إلى الجنوب ، أما الطريق إلى الخارج فيقع إلى الشرق . وهنا يظهر إنا ، الرب الضخم إلى الغرب من السرداً ، والموضع الذي بكى فيه الرب يقع إلى الشرق ، وهو ذاته الموضع الذي أقيم فيه مذبح يحتشد فيه الناس للاحتفال بالقدس .

وإلى جانب الكنيسة من جهة الجنوب تقع كنيسة الشهداء ، المباركين الأربعاء . وأخيراً ، وعلى بعد ميل واحد من بيت لحم ، يوجد دير الكهنة المقدسين الذين ظهر لهم الملائكة عند ميلاد الرب .

١٨ - أخيراً ، وعلى بعد ثلاثين ميلاً إلى الشرق من القدس يقع نهر الأردن Jordan الذي يوجد فوقه دير القديس يوحنا المعمدانى St. John The Baptist . وفي هذه الأماكن توجد أيضاً العديد من الأديرة التي تم تشييدها هناك .

١٩ - ومالبثنا أن وصلنا بعد ميل واحد إلى الغرب من مدينة القدس إلى كنيسة القديسة ماميلا St. Mamilla التي تحتوى على العديد من جثث الشهداء الذين بعد أن ذبحهم المسلمين ، قامت القديسة ماميلا ببذل جهد كبير لدفنهم هناك .

٢٠ - وبعد رحيلنا من القدس ، المدينة المقدسة ، وصلنا إلى البحر ، وصعدنا إلى متة السفينة وظللنا ببحر لمدة ستة أيام بضعة كبيرة لأن الرياح لم تكن مواتية لاتجاه السفينة . وأخيراً بعد ترك البحر ، وصلنا إلى جبل أوريس (جبل الذهب Mount of Gold) حيث يوجد كهف بسبعة مذايغ وفرقه توجد غابة كبيرة . وبسبب الظلام لا يمكن لأحد دخول هذا الكهف إلا باستخدام مشاعل مضيئة . وكان رئيس دير الرهبان هناك يدعى دوم فالنتينوس (Lord Valentine)

٢١ - وخرجنا من جبل أوريس (جبل الذهب) إلى روما . وفي الجانب الشرقي من هذه المدينة ، وفي المكان الذي يدعى لاتران ، توجد كنيسة جيدة البناء شيدت إحياءً لذكرى القديس يوحنا المعمدانى ، وهناك يقع قصر خاص بالرسل . ففي هذا المكان ، يتم احضار مفاتيح المدينة كلها إلى التابع الرسولي كل مساء . وفي الجانب الغربي ، كنيسة القديس بطرس ، أمير الرسل ، والتي تضم جشه . ولا توجد كنيسة أخرى في نفس حجم هذه الكنيسة في العالم أجمع ، كما إنها تحتوى على زخارف متعددة . وفي هذه المدينة تم دفن أعداد لا تُحصى من جثث القديسين

٢٢ - وعند هذه المدينة افترقنا عن بعضنا البعض . واتجهت بعد ذلك إلى القديس ميخائيل المعروف باسم صاحب المقبرتين St. Michael of the Two tombs (القديس ميخائيل حيث توجد المقبرتين) ، ويقع هذا المكان على جبل يمتد فرسخين في البحر . وعلى قمة هذا الجبل أقيمت كنيسة إحياءً لذكرى القديس ميخائيل ، ويحيط البحر بالجبل مرتين في اليوم ، أى في الصباح والمساء ، ولا يمكن الوصول إلى الجبل حتى يتراجع البحر (بفعل الجزر) لكن في عيد القديس ميخائيل Feast of st. Michael . حين يرتفع البحر حول الجبل ينحصر البحر مرة أخرى ، ويقف مثل الحائط على الجانب الأيمن وعلى الجانب الأيسر . وفي هذا اليوم المقدس ، يستطيع كل من يأتي لإقامة الصلاة الوصول إلى الجبل في أية ساعة في حين لا يستطيعون الوصول إليه في بقية الأيام . وكان رئيس دير الرهبان هناك هو فينيمونتيوس Phinimontius وهو من مقاطعة برتقالي Brettony.

٢٣ - الآن سأذكر لكم كيف ينفذ المسيحيون قانون الرب في القدس وفي مصر : يعيش المسيحيون والوثنيون في نوع من السلام فيما بينهم . فإذا ماكنت في رحلة ، والجمل أو الحمار الذي أمتطبه (يمتطيه خادمه) مات على الطريق ، فاضطررت إلى ترك كل أمتعتي بدون

حراسة ، وذهبت إلى المدينة لأحصل على دابة أخرى ، فإنني سأعود لأجد كل ممتلكاتي كما هي دون أن يمسها سوء . هذا هو السلام الذي يتمتعون به هناك . ولكن إذا ما قابلت رجلاً سائراً ليلاً ، أو حتى بالنهار في المدينة أو بجانب البحر أو في رحلة ، بدون أي مخطوط أو عهد من ملك أمير هذا البلد ، فسيتم حبسه بالسجن إلى أن يأتي اليوم الذي يعرف فيه بنفسه ليتبين ما إذا كان جاسوساً أم لا .

٢٤ - قام شعب بنفتليو بذبح أميرهم ^(١٩) سشار Sichard بسبب غطرسته ودمروا قانون المسيحيين بدرجة كبيرة . وبعد ذلك انتشرت الصراعات والنزاعات فيما بينهم إلى أن قبل لويس Lewis (شقيق شارلز Charles) ولوثر Lothair ، أن يصبح إمبراطوراً ^(٢٠) عليهم بعد أن تلقى دعوة من شعب بنفتليو له بذلك . ولكن تجرى في رومانيا Romania أعمال سيئة كثيرة ، كما يوجد بها رجال أشرار منهم من يسرق ومنهم من ينهب ، حتى أن هؤلاء الذين يتمتعون بالذهب إلى القديس بطرس لا يستطيعون عبور رومانيا إلا إذا كانوا في صحبة كبيرة و المسلحة بصورة جيدة . أما فيما يخص لبارديا Lombardy الذي يتولى لويس السابق ذكره حكمها ، فهي هادنة وسودها التسامح . ويسود السلام أيضاً بين سكان مقاطعة بريطاني . ولديهم عادة ألا وهي أنه إذا ما أوقع رجل ظلماً ورأها رجل ثالث يمر بالطريق ، يجب عليه أياً كان أن يقتصر لهذا الظلم وكأنه قريب للظلم . وإذا ماتم التثبت من قيام أحد بارتكاب جريمة السرقة لما يتعدى قيمته أربع دنانير فاما أن يقتل أو يشنق على عصا مسندة .

٢٥ - وأخيراً ، وفي وادي جيشمانية ، شاهدنا أحجاراً منيعة من الرخام عالي الجودة إلى حد أنه يستطيع المرء أن يرى كل ما يتنفس فيه وكأنه ينظر في مرآة .

(١٩) كان سشار Sichard آخر أمير من بنفتليو له نفوذ واسع . وقد تولى منصبه هذا عام ٨٣٢ م. ، وقتل في عام ٨٣٩ م. ، وعيّن مكانه أمين الصندوق عنده ركالبس Radelchis ، في عام ٨٦٦ م. ، أى قبل رحلة برنارد بفترة قصيرة ، قبل ركالبس أن يخضع تحت حكم الإمبراطور لويس الأول Louis.

(٢٠) يبدو أن الكلمة رومانيا هنا تعنى «المنطقة المحيطة بروما» مما يتنافى مع ما أوردته إفبيانى الراهب Epiphanius the Monk في قصيدته .

